عزيز نيسين

المجنون بمائة ليرة

« قصص »

ترجمة: عبد الوهاب مدني

الوطنية الجديدة

المجنون بمائة ليرة

* المجنون بمائة ليرة «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* **ترجمة: عبد الوهاب مدني**
* الطبعة الأولى ٢٠٠٧
* جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
الناشر:
الدار الوطنية الجديدة للنشر
سورية - دمشق - ص.ب: ٥٩٥٣
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ - فاكس: ٢٢٤٨٥٦٠

* العمليات الفنية: **مؤسسة سندباد**
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - بريد الكتروني: sindbad@scs-net.org

عزيز نيسين

المجنون بمائة ليرة

« قصص »

ترجمة: عبد الوهاب مدني

الوطنية الجديدة

عنوان الكتاب بالتركية

AZIZ NESIN

YÜZ LIRAYA BIR DELI

١ ـ المجنون بمائة ليرة

يطلق الناس اسم (التمرخانة) على المكان الذي يسميه الأطباء الرسميون، مستشفى الأمراض العقلية.. فقد هرب من هذا المستشفى خمسة مجانين. أي خمسة أشخاص مصابين بأمراض عقلية. ولما أُخبر موظفوا المستشفى بأمر هروبهم، بدأوا يؤرخون جميع أعمالهم بتاريخ هروب هؤلاء الخمسة من المستشفى، في حين كان الواجب يقتضي التكتم على هذا الأمر، وطمس التاريخ الذي هربوا فيه.

سيطر القلق على موظفي وأطباء المستشفى لأن الهاربين الخمسة من النوع الهجومي والخطير، حتى أن بعضهم ارتكب جناية القتل مع بعض المجانين في المستشفى، وأن أحدهم وكان مهووساً في إشعال الحرائق فيها.

علم رئيس الأطباء بالأمر، فاتصل مباشرة وبمديرية الأمن في المحافظة وأبلغهم عن هروب المجانين طالباً من الجهة الأمنية سرعة القبض على هؤلاء الخمسة، قبل أن يتسببوا بحوادث مؤسفة، لكن الضابط المناوب في مديرية الأمن والذي كان يتحدث مع رئيس الأطباء طلب تزويده بكتاب رسمي صادر عن المستشفى بهذا الخصوص.

كان رئيس الأطباء يعلم ذلك، لكن الأمر يتطلب سرعة التحرك للقبض على هؤلاء المجانين، لأن لا أحد يعلم كم من الوقت سوف

يستغرق وصول الطلب الرسمي من المستشفى إلى مديرية الأمن، ومن سيتحمل مسؤولية هؤلاء المجانين إذا قاموا بارتكاب بعض الأعمال الخطرة خلال هذه المدة، وهل ستتحمل مديرية الأمن مسؤولية ما يمكن أن يحدث ريثما تصلها الأوراق الرسمية.

بدأ الضابط المناوب في مديرية الأمن بتسجيل بعض الملاحظات على الورقة التي أمامه. في يوم .. من تاريخ.. الساعة.. هرب خمسة مجانين، أحدهم يرتدي لباس المستشفى المخطط وآخر امرأة برفقة رجل وكلاهما عاريان لأنهما نسيا ارتداء لباس المستشفى عند هروبهما، أما الإثنان الآخران فإنهما يرتديان لباس موظفي المستشفى..

ثم بعدها سأل الضابط المناوب رئيس الأطباء قائلاً:

ـ وكيف يمكن القبض على هؤلاء المجانين في هذه المدينة الكبيرة يا سيدي!.. أليس لهم علامات فارقة.

عندها اغتاظ رئيس الأطباء وقال:

ـ أعلمتك بالعلامات الفارقة، أحدهم يرتدي لباس المستشفى المخطط، وإثنان امرأة ورجل عاريان وآخران يرتديان لباس موظفي المستشفى.

ـ لو تمكنا من القبض على شخص واحد عارٍ في هذه المدينة فهذا جيد. ولكن أليس لدى هؤلاء المجانين صفات أخرى تميزهم عن غيرهم؟.. تصرفاتهم مثلاً.

ـ هه. فهمت ماذا تقصد.. لديهم طبعاً.. سأعطيك طبيب الخدمة

ليحدثك عنهم. استدعى رئيس الأطباء طبيب الخدمة ليتحدث للضابط، والضابط بدوره أعطى جهاز الهاتف إلى الشرطي المناوب وقال له:

ـ اكتب ما يملونه عليك من معلومات.

ـ الهاربون من المستشفى لديهم انفصام في الشخصية.. والعلامات الفارقة تصرفاتهم غير الطبيعية.. واختصاراً، عند اشتباهكم بأي شخص في هذه المدينة يقوم بتصرفات غير طبيعية، فيجب إلقاء القبض عليه وإجراء التحقيق معه.

اهتمت الوزارة بدورها في هذا الموضوع، وأعطت له أهمية كبيرة، كون المجانين الفارين خطرين جداً ويجب القبض عليهم بأقصى سرعة ممكنة، جرى إعلام كافة دوائر الأمن والمخافر بالهاتف والبرقيات على النحو التالي:

«نظراً للأهمية القصوى، وريثما تصلكم أوامرنا الخطية، نعلمكم بما يلي:

البارحة ليلاً هرب من مستشفى الأمراض العقلية خمسة مجانين بينهم امرأة. وهؤلاء المجانين خطرون جداً. وقد علمنا من رئاسة أطباء المستشفى أن المرأة المريضة يرافقها رجل مريض وكلاهما عاريان، أحد هؤلاء المرضى يرتدي لباس المستشفى المخطط، أما الإثنان الباقيان فيرتديان لباس موظفي المستشفى.

المرضى الفارون وحسب إفادة رئاسة أطباء المستشفى يقومون بتصرفات غير طبيعية، لذلك يجب التحرك فوراً للقبض على المرضى الخمسة قبل أن يقوموا بأية أحداث مؤسفة، وفي حال

عثوركم على أي شخص تصرفاته غير طبيعية يتم إلقاء القبض عليه فوراً وإرساله إلى مستشفى الأمراض العقلية. لمعاينته والتأكد منه وشكراً».

ملاحظة: «لقد أمرت الوزارة بمكافأة نقدية مقدارها مائة ليرة لمن يلقي القبض على أي من هؤلاء المرضى الهاربين من مستشفى الأمراض العقلية».

وبعد تلقي هذه الأوامر جمع رئيس أحد المخافر عناصره وسألهم:

ـ هل هناك غموض في هذه التعليمات؟

وعندما لم يصدر أي تعليق أو سؤال من أحد، اعتبر أن الأمر أصبح واضحاً.

ـ هيا يا أصدقائي.. عليكم تنفيذ المهمة فوراً.. يجب أن تقوموا بالبحث والتفتيش في منطقتنا، فالأمر واضح.. ابحثوا عن الأشخاص الذين يقومون بتصرفات غريبة. هل فهمتم؟.. مائة ليرة عن كل مجنون.

ـ انبرى أحد الشرطة قائلاً:

ـ هيا بنا نصطاد المجانين.. هيا إلى صيد المجانين.

ـ وقال شرطي آخر كان يجلس خلف الطاولة:

ـ يا لحظي السيء، لو لم أكن مناوباً هذه الليلة لكنت ذهبت أنا أيضاً في مهمة البحث عن المجانين..

ـ سأل أحد الحراس الواقفين خلف رجال الشرطة:

ـ إذا وفقني الله وقبضت على مجنون، فهل ستعطون للحراس مائة ليرة أيضاً؟...

ـ أجابه رئيس المخفر:

ـ طبعاً.. الجميع متساوون، ولافرق بينك وبين أي شرطي آخر.

وبعد خروج الشرطة من المخفر للقيام بتنفيذ المهمة بفترة وجيزة. دخل أحد رجال الشرطة إلى غرفة رئيس المخفر وقال له:

ـ لقد قبضت فوراً على أحد هؤلاء المجانين وألقيت به في النظارة وأنا ذاهب الآن لأبحث عن الآخرين، فقال له رئيس المخفر:

ـ ماهذه السرعة وأين قبضت عليه؟

ـ لدى خروجي من المخفر. وجدته واقفاً أمام الباب.

ـ وكيف عرفت أنه مجنون؟..

ـ ردّ الشرطي: «لو لم يكن مجنوناً، فهل كان سيمر من أمام المخفر؟..» ولكنه مسك لسانه عن الكلام وقال:

ـ ألم تقولوا أن لديهم تصرفات غير طبيعية!.. لقد كان لدى هذا الشخص تصرفات غير طبيعية.

بعد ذلك دخل إلى غرفة رئيس المخفر شرطي آخر فرحاً وقال لرئيس المخفر وهو يلوّح بقبضة يده اليمنى.

ـ لقد قبضت على اثنين من المجانين إنهما «خالص ومخلص»، مجنونان.

ـ وكيف عرفت أنهما مجنونان؟..

ـ لأن أحدهم كان اسمه خالص، والثاني اسمه مخلص.

بناء عليه قال رئيس المخفر:

ـ يجب عدم إضاعة الوقت، هيا نظموا التقرير اللازم!.. وضع الرجل الجالس خلف الطاولة الورقة في الآلة الكاتبة فقال له رئيس المخفر.

ـ اكتب.. «نعرض عليكم أن أحد منسوبي مخفرنا، رقم ياقته ٢٨٧٦».. اكتب الاسم.. «بعد أن لاحظنا وتأكدنا من صدور تصرفات غير طبيعية على شخصين وبعد ملاحقة طويلة ومضنية، ثبت لدينا بأن أحدهم كان من الأشخاص الخمسة الهاربين من التمرخانة».. (كلا اشطب التمرخانة وضع عوضاً عنها مستشفى الأمراض العقلية).

.. «من مستشفى الأمراض العقلية، وقد تم إلقاء القبض عليه قبل أن يتمكن من القيام بأي حادث مؤسف، وتم التحفظ على هذا المواطن المريض العقلي في النظارة قبل سوقه إليكم» .. أعتقد أن الكتابة ركيكية.

بعد ذلك دخل شرطي آخر فرحاً إلى غرفة رئيس المخفر وهو يجرجر شخصان نصف عاريان ويقول:

ـ الحمد لله لقد أصبحت المائتي ليرة في جيبي الآن.

قال له رئيس المخفر:

ـ عن أي مائتي ليرة تتحدث؟..

ـ يا سيدي لقد قبضت بفضلكم على مجنونين عاريين في الوقت

الذي عز فيه وجود مجانين عراة!...

- لكنهما ليسا عاريين تماماً.

- بل يعتبران عاريان. فهل تريدني أن آخذهم إلى الداخل لأجبرهم على خلع ملابسهم؟.. سأضعهم الآن في النظارة لأذهب وأقبض على غيرهم لأن خارج المخفر يعج بالمجانين!..

أبلغت المخافر مديرية الأمن بأن عدد الأشخاص الذين تم القبض عليهم للاشتباه بتصرفاتهم غير طبيعية بلغ تسعة أشخاص. وقد تسبب هذا الخبر في دهشة المسؤولين، لذلك بادروا بسؤال مستشفى الأمراض العقلية هاتفياً:

«نرجو إعلامنا بصورة نهائية عن العدد الحقيقي للمجانين الهاربين من المستشفى حيث قمنا بتنظيم تسعة ضبوط بحق تسعة أشخاص نظراً لاشتباهنا بتصرفاتهم غير الطبيعية وشكراً».

تم التأكد في المستشفى مرة أخرى بعد القيام بإحصاء عدد المجانين، حيث تبين أن عدد المجانين الهاربين خمسة فقط، ولكن هذه النتيجة لم تصل إلى الدوائر المختصة إلا بعد ارتفاع عدد الأشخاص المقبوض عليهم نتيجة الاشتباه بتصرفاتهم غير الطبيعية إلى ستة وعشر بدلاً من خمسة مجانين. وظل عدد المقبوض عليهم يرتفع باستمرار وبدون توقف. عندها أبلغ رئيس أطباء المستشفى المسؤولين في الأمن وهو يصرخ بأعلى صوته:

- كفى.. كفى.. لانريد المزيد.. أين سأضع هؤلاء.. فأنا لا أستطيع تدبير أموري مع المجانين الموجودين في المستشفى. وإزاء هذا العدد

أرسلت إدارة المستشفى إلى دوائر الأمن الكتاب التالي:

«عطفاً على الضبوط المنظمة في مخافركم، من قبل أفراد الشرطة الميامين الذين بذلوا جهوداً كبيرة وتضحيات فريدة تكللت بالقبض على هؤلاء الستة والعشرين شخصاً نتيجة الاشتباه بتصرفاتهم، لقد أرسلتم هؤلاء الأشخاص عوضاً عن المرضى الخمسة المطلوبين، ونظراً لعدم قدرتنا على الاحتفاظ بهؤلاء الأشخاص في المستشفى بدون سبب، ومنعاً لوقوع أي خطأ، فقد قررنا عرضهم على لجنة طبية مختصة للتأكد من وجود المرضى الحقيقيين بينهم ولنتحفظ عليهم في حال وجودهم. علماً بأننا لم نجد حتى الآن من بين الأشخاص المرسلين إلى مشفانا، المريض الذي هرب بلباس المستشفى والمريضين العارين».

ورغم صدور هذه المعلومات عن مديرية المستشفى إلا أن دوائر الأمن لم تتوقف عن القبض على الأشخاص المشتبه في تصرفاتهم.

كان يتم القبض على هؤلاء. إما بناء على اعترافاتهم الشخصية، أو قيامهم بتصرفات غير طبيعية، أو بناء على إفادات بعض الأشخاص الذين لهم معرفة سابقة بأحدهم، أو بناء على شكوى من الأقارب أو الجيران. وخاصة أن بعض النسوة كن قد تقدمن بشكوى بحق أزواجهن يدَّعون فيها بأنهم مجانين. كذلك تقدّم بعض الأزواج بشكوى بحق زوجاتهم بأنهن مجانين.

تداخلت الأمور كثيراً. بعض الأشخاص يراجعون المخفر مدعين الجنون ويقولون في المخفر «نحن مجانين». وبعضهم كتب معروضاً

يقول فيه:

«لقد هربت من مستشفى المجانين، وعلمت بأنكم تبحثون عني. بما أنني ندمت على هروبي من المستشفى. بعد معرفتي الحقيقة، لذا أرجو قبولي ثانية لديكم. وتفضلوا بقبول فائق احترامي».

تشعبت الأمور كثيراً وبرزت مشكلة أخرى. فالأشخاص الذين حضروا إلى المخفر بمحض إرادتهم، وقالوا عن أنفسهم بأنهم مجانين. لا يُعتبرون من المقبوض عليهم من قبل الشرطة، وبالتالي لن يحصل رجال الشرطة على مكافأة المائة ليرة التي وعدوا بها لقاء القبض على كل مجنون، لذلك امتنعت الشرطة عن استقبال أمثال هؤلاء الذين يدعون الجنون. وكان الشرطي المناوب يطردهم بعيداً عن المخفر. ثم يقوم باعتراض طريقهم والقبض عليهم. وكأنه هو من قبض عليهم أصلاً، ويقوم بتنظيم الضبط اللازم ويضع رقم ياقته على الضبط المرفق مع المجنون إلى المستشفى.

كانت الصعوبات تكمن في التأكد من أن المرضى الفارين من المستشفى هم ضمن عداد الأشخاص المقبوض عليهم أم لا. والمعلومات التي صرحت بها رئاسة الأطباء في المستشفى زادت الأمور تعقيداً فقد جاء في هذه المعلومات ما يلي:

«قمنا بمعاينة جميع الأشخاص الذين أرسلوا إلى مستشفانا بسبب الاشتباه بتصرفاتهم غير الطبيعية، فقد تبين لنا أن جميع هؤلاء الأشخاص مصابون بأمراض نفسية وعصبية لذلك قررنا التحفظ عليهم جميعاً. ونحن متأكدون من أن هؤلاء الأشخاص لم يكن من الممكن القبض عليهم لولا الجهود الكبيرة والتضحيات الجسيمة التي

قامت بها عناصر الشرطة، لكننا لم نتمكن من التأكد حتى الآن فيما إذا كان المجانين الخمسة الفارون هم ضمن الأشخاص المقبوض عليهم أم لا..».

كما ألقت الشرطة القبض على المريض الهارب العريان على شاطئ البحر، بعد حملة تفتيش واسعة، كما قبضوا على أشخاص كثيرين من جراء هذه الحملة لتصرفاتهم غير الطبيعية. لكن الأشخاص المقبوض عليهم ادعوا بأنهم ليسوا مجانين. وادعوا أيضاً بأنه ألقي القبض عليهم وهم في غرف الحمام عندما كانوا يخلعون سراويلهم لكي يلبسوا (المايو). أو عندما كانوا يخلعون (المايو) ليلبسوا سراويلهم. ولم تؤخذ أقوالهم هذه في عين الاعتبار لأن المجانين لا يعترفون أبداً بأنهم مجانين!..

أما في الفنادق وبعد حملة مداهمة واسعة، وبالنظر إلى داخل الغرف من خلال ثقوب الأقفال. تبين وجود الكثير ممن كانوا يقومون بتصرفات غير طبيعية. سواء على الأسرة أو في الغرف، فألقي القبض على الكثيرين ممن كانوا يرتدون لباس نوم مخطط (بيجاما) ولدى مداهمة بيوت الدعارة أيضاً ألقي القبض على كثيرين ممن كانوا يرتدون بيجامات مخططة. والذين كانت تصرفاتهم غير طبيعية، كما قبض على بعض المواطنين الفضوليين وهم يشاهدون مداهمة الشرطة لهذه البيوت.

لقد أعلم أفراد الشرطة الذين ألقوا القبض على المجانين أنهم لن يُمنحوا مكافأتهم الموعودة وقدرها مائة ليرة قبل التوصل إلى نتيجة قطعية تؤكد أن بين المقبوض عليهم بعض المجانين الفارين أم لا.

بعد هذا الجواب المخيب للآمال. بدأ عدد المقبوض عليهم بسب بتصرفاتهم غير الطبيعية يتناقص تدريجياً. لقد تم اصطياد تسعة مجانين في اليوم الأول، وستة وعشرون في اليوم الثاني، وارتفع العدد في الأيام التالية بعد إلغاء القبض على الكثيرين، وازداد تناقصاً، بعد إشاعة بتأخر المكافأة، ثم توقف نهائياً ولم يعد رجال الشرطة يلاحظون أي تصرف غير طبيعي على أي إنسان!..

ورغم أنهم لم يتأكدوا من القبض على المجانين الفارين الخمسة إلا أنهم لم يلاحظوا أي تصرفات غير عادية لدى الناس، ولذلك اعتبروا أن المدينة خلت من المجانين. ولكنهم رغم اعتقادهم هذا فإن المناقشات ماتزال تجري في مخافر الأحياء بين بعض أفراد الشرطة.

ـ يا أخي مهما فعلنا أمام هذا الشعب، ومهما قدمنا من خدمات وتضحيات، فإنه لا يقدّر قيمة ما فعلناه!.. مثلاً طلبوا منا القبض على خمسة مجانين وأنا قبضت بمفردي على تسعة!..

ـ ماذا حصل؟ هل عرفوا قيمتك؟..

ـ أبداً.. ولا أدري ما فائدة القبض على المجانين؟.

ـ نحن قبضنا على المجانين خدمة للبلد.

ـ مساكين هؤلاء المجانين.

ـ كونهم مجانين.... فهذا شيء من الله.

ـ لاتنسوا أن المجنون مواطن أيضاً.

ـ أين المائة ليرة التي وعدونا بها لقاء القبض على كل مجنون.. قبضت على سبعة فالدولة إذن مدينة لي بسبعمائة ليرة. وأنا أراهن

بمبلغ خمسمائة ليرة كحل وسط، وفي هذه الحال أستطيع تسديد آجار بيتي الذي لم أدفعه حتى الآن.

ـ أما أنا فقد عملت بجد وإخلاص. ولو دفعوا لنا حقوقنا، لقبضت على مجانين آخرين.

ـ أما أنا فكنت سأنظف البلد من هؤلاء المجانين.

ـ كنت على وشك القبض على حماتي.. كما رضيت زوجتي بالقبض عليها، لكنني تخليت عن هذه الفكرة عندما اقتنعت بأنهم لا يدفعوا نقوداً.. على كل ومهما كان الأمر لن أضحي بحماتي المسكينة وأرسلها إلى التمر خانة.

ـ ليدفعوا حقوقنا اليوم وسوف يرون كيف سأخرج إلى الشارع وأقبض على عشرات المجانين وإلا فلن أستحق أبداً أن أكون في عداد الرجال.

ـ لو ترسخت الإرادة في الإنسان لاستطاع القبض على كثيرين.

ـ كانت الأمور تجري سابقاً أفضل من الآن.. فقد شب حريق كبير في أحد الأيام وأعلنوا عن دفع إكرامية راتب شهرين لمن يقبض على الفاعل!... ورغم أنني قبضت على اثنين إلا أنهم أكلوا حقي ولم يعترفوا سوى بفاعل واحد، أعطوني إكرامية واحدة فقط.

ـ المهم أنك قبضت سواء أكان الذي قبضته قليلاً أم كثيراً.

ـ ولكن مهما جرى في هذه البلاد فالمجانين لا زالوا منتشرين في كل مكان ولا يمكن لأحد عبور الشارع من كثرة عددهم.

ـ من جهتي لن أقبض على أي مجنون بعد الآن.

ـ وأنا أيضاً لا يمكن أن أقبض على أي مجنون مهما كلف الأمر.

ـ لهذا السبب، سوف نظل نعيش وسط المجانين، أليس كذلك يا أخي..

* * *

٢ ـ نجلاء المسكينة

أن تكون قد ولدت في استانبول وترعرعت فيها ولا تعرفها جيداً، فهذا شيء معيب حقاً. لقد كنت أنا ذلك الاستانبولي الذي لايعرف استانبول، لأنني لم أذهب أبداً إلى منطقة السدود التي يتحدثون عنها ويقولون أنها من أجمل الأماكن!..

كنا في بداية فصل الصيف عندما اتصل بي أحد الأصدقاء هاتفياً وقال لي:

ـ سنقوم بنزهة يوم الأحد فهل تأتي معنا؟..

ـ إلى أين تودون الذهاب؟..

ـ إلى منطقة السدود!..

قال لي صديقي إن عدد الأشخاص المشتركين في هذه النزهة يتجاوز العشرين، وعلى كل شخص أن يجلب معه طعامه، ونقطة التجمع في ساحة ميناء (قباتاش) الساعة التاسعة، هناك بعض الأشخاص لديهم سيارات.. ونحن والحمد لله لا نملك واسطة نقل سوى الأرجل) يمكنكم الركوب معهم عند التوجه إلى منطقة السدود.

قمنا بسلق البيض، وتحضير أواني الزيت والخل .. وطبخنا المحاشي والكفتة، والبرك، ولم ننس البندورة والخيار.. كما تزودنا بالعرق.. والعنب والدراق. ووصلنا الميناء قرابة التاسعة إلا عشر دقائق.. وانتظرنا حتى الساعة التاسعة، ثم التاسعة والنصف وصديقنا لم يأت.

انبرت ابنتي العاقلة وقالت:

ـ أرجو أن لاتكون قد فهمت مكان الموعد خطأ يا أبي. وربما كان الموعد في (بشيك تاش) وهم ينتظرون هناك الآن!.. فقلت لها:

ـ ربما...

ثم انبرى ولدي قائلاً:

ـ ربما كان الموعد في (ديكلي تاش) وأنت فهمت (قباتاش) فقلت:

ـ ربما..

عندها قالت زوجتي غاضبة:

ـ ما دمت تقول ربما، فلماذا لا يكون الموعد في (جمبرلي تاش)(*)، لأنه واضح منذ بداية حديثك أنك لم تفهم شيئاً وقد اختلطت معك الأمور عندما حدثوك على الهاتف وقالوا لك (جمبرلي تاش) وأنت فهمتها (قباتاش) فقلت لها.

ـ ربما...

عندها قال طفلي الصغير:

ـ هناك (قره تاش) وقد يكونوا في انتظارنا هناك فقلت:

ـ ربما...

غضبت زوجتي وقالت:

ـ يا عزيزي كيف تقول ربما؟.. هل الموعد في (بشيك تاش) أم في

(*) ان جميع أفراد العائلة يذكرون أسماء الأماكن التي تنتهي بكلمة تاش ظناً منهم أن الأب سمع خطأ مكان الموعد.

(قمباتاش) أم في (جمبرلي تاش) أم في (ديكلي تاش) أم في (قره تاش).

عند ذلك عرفت كثرة الأماكن التي تحمل اسم (تاش) في استانبول فقلت لهم:

ـ عددوا لي أسماء الأماكن التي فيها كلمة (تاش) لأتذكر مكان الموعد.

قالت زوجتي:

ـ لماذا لايكون المكان (أطلامة تاش).

ثم قالت ابنتي:

ـ هناك مكان اسمه (تاش لك)

لقد تغيّر مزاجنا منذ الصباح.

ثم أردف ولدي قائلاً:

ـ لماذا لايكون الموعد في (نيشان تاش)

لقد تشوشت أفكاري تماماً، وأوشكت على اتخاذ قرار بركوب سيارة أجرة للطواف على جميع الأماكن التي تحمل اسم (تاش).. وإذا بشخص طويل القامة يقترب مني ويسألني:

ـ عفواً.. هل أنتم ذاهبون إلى منطقة السدود؟..

ـ نعم وكيف عرفت؟..

ـ لأننا نحن ذاهبون أيضاً إلى هناك.. كان (جوش كون) قد اتصل بنا هاتفياً وقال لنا أن موعد اللقاء هو التاسعة صباحاً هنا، ولكنه اتصل ثانية هذا الصباح وأخبرنا بأنه لن يتمكن من الحضور بسبب مرض

مفاجئ ألمّ به.. أما كيف عرفت أننا ذاهبون إلى منطقة السدود؟.. عرفت ذلك من الحقائب والسلال التي تحملونها.

ـ وهل هناك أشخاص آخرون سيرافقوننا في هذه النزهة؟..

ـ أعتقد أنهم كثر حسبما قال لي (جوش كون) ولكنني لا أعرف أي واحد منهم، وأنتم ألا تعرفون أحداً.

ـ كلا.

ـ ماذا سنفعل؟

ـ لا أدري.

ـ هناك أعداد كثيرة بالانتظار هيا بنا نسألهم..

كان المتحدث على ما يبدو ترافقه زوجته، والمنتظرون في ساحة الميناء يحملون الحقائب والسلال مثلنا فسألت أحدهم.

ـ عفواً هل أنتم ذاهبون إلى منطقة السدود؟

ـ أي سدود؟..

ـ السدود المائية.

ـ وماذا سأفعل بالسدود المائية؟

ـ لا أدري.. إنني أسألك فقط.

فأجابني الرجل غاضباً ظاناً أنني أسخر منه.

ـ أنا لست ذاهباً إلى منطقة السدود ولا إلى منطقة البطيخ.

ـ كما تشاء..

ـ يا أخي لن أذهب.

ـ يا أخي لاتذهب، فلا أحد يرغمك على الذهاب، كلامي مجرد سؤال فقط فيما إذا كنت ذاهباً إلى منطقة السدود أم لا.

تركت الرجل وانسحبت بهدوء. فشاهدت الرجل الذي تعرفت عليه قبل قليل يسأل أحد المنتظرين في ساحة الميناء، فيما إذا كان ذاهباً إلى منطقة السدود أم لا؟.. وتقدمت أنا أيضاً من أحد المنتظرين وسألته:

ـ عفواً هل انتم ذاهبون إلى منطقة السدود؟..

ـ وما دخلك أنت؟

ـ أبداً إنه مجرد سؤال.

ياسبحان الله.. لماذا الغضب مسيطر على هؤلاء الناس في هذا الصباح الجميل؟..

انضمت زوجة الرجل للحديث وقالت:

ـ وماذا يهمك أنت فيما إذا كنا سنذهب إلى منطقة السدود أم إلى منطقة أخرى؟..

ـ أبداً.. اذهبوا حيث شئتم فأنا لادخل لي في ذلك.

انسحبتُ من هناك وعدت إلى عائلتي، فرأيت صاحبنا وقد التقى بعائلة أخرى ذاهبة إلى منطقة السدود. وهذه العائلة تنتظر وصول (جوش كون) أصبحنا ثلاث عائلات. ذهبنا نحن الرجال وعددنا أربعة، وبدأنا بسؤال الناس الواقفين في ساحة الميناء لنعرف من سيذهب منهم إلى منطقة السدود، توجهت إلى أحد الرجال وسألته:

ـ من فضلك هل أنتم ذاهبون إلى منطقة السدود؟..

ـ هذا شيء لا يخصك.

انزعجت كثيراً ولكنني قلت له:

ـ أنا أبحث عن بعض الأصدقاء الذين سيرافقوننا برحلتنا إلى منطقة السدود .

صرخت زوجة الرجل بحدة وقالت:

ـ كلا .. كلا.. كلا.. لسنا ذاهبين إلى منطقة السدود. إننا ذاهبون إلى مكان آخر هل فهمت؟.

ـ نعم فهمت يا سيدتي.

أغلب الظن أن المرأة كانت تتناقش مع زوجها على الذهاب إلى مكان آخر غير منطقة السدود عندما قطعت عليهما نقاشهما بسؤالي.

لم أكن أعرف ما يغضب هؤلاء الناس لدى سؤالهم عن منطقة السدود، هذه المرة سألت أحدهم بمنتهى اللطف وقلت له:

ـ أرجو أن تقبل مزيد اعتذاري، هل أستطيع أن أسألكم إلى أين أنتم ذاهبون؟

ـ ولماذا تسألون؟

ـ لأننا نحن ذاهبون إلى منطقة السدود.

ـ نحن لسنا ذاهبون.

ـ نحن ذاهبون.

ـ نحن لسنا ذاهبين يا أخي.

حسناً كما تريدون ـ لا تذهبوا.

ـ لماذا تسألون؟

ـ أبداً إننا نبحث عن أحدهم.

ـ ولكن لماذا سألتم ياسيدي؟..

الله الله. كيف سأتخلص من هذا الرجل الذي تورطت معه وسألته:

ـ هل السؤال حرام.. لقد سألتك سؤالاً وانتهى الأمر.

ـ ولكن لماذا؟.. هل تسخر مني؟..

ـ استغفر الله.

ـ منذ فترة وكل واحد يأتي ويسألني نفس السؤال. هل أنت ذاهب إلى منطقة السدود.

ـ يا أخي سوف لن أذهب.

ـ لماذا ترسلون بعضكم البعض لتسألوني؟ هل تسخرون مني؟.

كان الرجل على حق لأن باقي الأصدقاء سألوه قبلي أي أن ثلاثة أشخاص سألوه قبلي نفس السؤال مما جعله يغضب ويعتقد أن في الأمر سخرية!..

أخيراً وفي مثل هذا الجو المشحون بالمهاترات ونتيجة البحث عرفنا من المنتظرين من الذي سيذهب إلى منطقة السدود. هل تعرفون من هم؟.. إنهم جميع الأشخاص الذين سألتهم والذين كانوا يردون علي بغضب لأنهم ينزعجون من طول الانتظار.

كان (جوش كون) قد تكلم مع جميع معارفه، لكن معارفه لا يعرفون بعضهم البعض، لو جاء في الموعد لكنا تعرفنا على بعضنا.

KMH

انطلقت بنا السيارات الأربع السيارة التي كانت تقلنا من نوع سيارة سباق صفراء اللون، وكان إلى جانب صاحب السيارة زوجته وأختها. وقد بدت على وجوههم علامات الغضب إما لأن (جوش كون) لم يأت أو لأنهم انزعجوا من الانتظار!..

توقفت السيارات في منطقة (ببك) فقام بعضهم بشراء السكائر والبعض الآخر بشراء الخبز، أما أنا فقد انتهزت فرصة توقف السيارة وذهبت إلى سيارة أخرى لأتخلص من هؤلاء الناس الغاضبين. لكن تبين لي أن الناس في السيارة الثانية غاضبون أيضاً.. وهكذا وفي مثل هذا الجو المشحون بالغضب وصلنا إلى منطقة السدود.. وتوجهنا إلى أحد المقاهي وجلسنا سوية. رغم عدم معرفتنا ببعض، وبدأ كل واحد منا يخرج طعامه.

ـ ماذا جلبت معك؟

ـ كفته، بورك، محشي، بيض.

ـ وأنا كذلك.

ـ ونحن أيضاً جلبنا معنا كفته، وبورك، ومحشي وبيض.

ـ آ. آ. آ. ونحن أيضاً.

كانت كمية الكفته والمحاشي التي أخرجناها تكفي لإملاء دكان بالكامل.. وهذا سبب لنا أيضاً بعض الإزعاج. تناولنا طعامنا في مثل هذا الجو المشحون، وكان البعض يتناول المشروب، ولم نسأل بعضنا عن أسمائنا ولم نتعارف أيضاً.

أردت تلطيف الجو فقمت بإلقاء بعض النكات، ولكن الجميع أشاحوا بأنظارهم واعتبروا أن ما أقوم به هو نوع من الغلاظة. لم أتوقف

عن تناول المشروب لاعتقادي أن ذلك من شأنه القضاء على هذا الجو المتوتر الذي اعترى الجميع. ولاحت على الرجل الطويل القامة ملامح زوال غضبه تدريجياً فبدأ يروي لنا حكاية جرت معه:

نزل من سيارة السيرفيس أمام مبنى البريد الكبير.. فرأى الناس مزدحمين!..

اندس وسط الزحام ليعرف ماذا يجري، ظهر في البداية أن هناك شخصاً محتالاً يمزج الكلس بالرماد ويضعه في علب ويبيعه على أنه دواء مبيد للحشرات ولكنه اتضح له أن الأمر غير ذلك.

وكانت هناك أيضاً سيدة تبكي وتستغيث وهي تركض على درج العدلية وتقول: «أين العدل.. ألا يوجد عدل» يطاردها ثلاثة رجال كالوحوش ومن ثم ينهالون عليها ضرباً بلا رحمة. ارتفع صوت صراخها واستغاثتها وهي تقول: «الشرطة..أين الشرطة.. النجدة.. أريد العدل» وفوق كل هذا حصل أمر غريب، فقد قفز من بين الزحام أحد رجال الشرطة وبدلاً من إنقاذ المرأة بدأ ينهال عليها ضرباً بعصاه. مسكينة هذه المرأة ما عساها فاعلة أمام هؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى الشرطي؟.. تمزقت ثيابها وظهر صدرها.. والشرطي يشدها من شعرها الذي كان مربوطاً على شكل ذيل حصان ويجرها على الرصيف.

ـ كنا جميعاً نصغي باهتمام إلى حديث الرجل الطويل الذي تابع قائلاً.

ـ يا أخي أنا لم أنزعج من الشرطي. لأن الشرطي قد يحتاج إلى استخدام العنف ليقوم بأداء واجبه كما لم أنزعج من أولئك الرجال الثلاثة، فربما كان أحدهم زوجها، وله الحق في ضرب وتأنيب زوجته،

وقد يكون الرجلان الآخران صديقين لهذه المرأة، وباستطاعتهم أن يفعلوا ما يشاؤون، ولكن ما أزعجني في الحقيقة هو وجود هذا الجمع الغفير من الناس والذين وقفوا يتفرجون على هذه المرأة وهي تُضرب أمام أعينهم صارخة مستغيثة «العدل.. أريد العدل» دون أن يرف لهم جفن ودون أي اهتمام.

ثارت النخوة والحمية فجأة في رأسي وأطلقت صرخة مدوية وقلت: ـ أيها السفلة، يا من فقدتم الدين والإيمان، واخترقت الزحام، وهجمت على هؤلاء الأنزال فخطفت العصا من يد الشرطي وهجمت على الثلاثة الباقين الذين فروا من أمامي كفراخ الدجاج.

بعد ذلك التفتُّ إلى الناس الواقفين على الدرج وقلت لهم:

ـ يا لكم من جبناء. تقفون كالنعام تتفرجون على هذه المرأة وهي تُضرب بقسوة أمامكم؟ وبينما كنت أصرخ في الناس، انتفضت السيدة وانتصبت واقفة على قدميها ثم خلعت فردة حذائها وهجمت عليّ وبدأت تنهال ضرباً على رأسي. ذهلت لتصرف السيدة ولم أعرف كيف سأتصرف، وبينما أنا كذلك انقض عليّ خمسة أو عشرة أشخاص من بين هؤلاء الناس وانهالوا علي ضرباً ورفساً، وبدأتُ بالاستغاثة هذه المرة بدلاً من السيدة «أين العدل.. أليس هناك عدل في هذه البلاد؟.. يا قليلي الشرف ماذا تفعلون.. أين الشرطة، هل ذهبت الشرطة في إجازة؟.. إذا لم يكن هناك شرطة فأين الدرك»..

ولكن ما من مجيب لهذا النداء.. بعد ذلك سحبوني ورموني على جانب الشارع ثم جاء أحد الرجال وصرخ في وجهي وهو يستشيط غضباً قائلاً:

ـ ولك العمى في عيونك.. ما الذي فعلته؟.. لقد سببت لي خسارة مقدارها عشرون ألف ليرة.

يا أخي إذا كان ضرب السيدة يعطي ربحاً مقداره عشرون ألف ليرة فلماذا تتوقفون عن الضرب؟.. فهمت سر الموضوع بعد ذلك. لقد عرفت بأن هؤلاء الأشخاص كانوا يقومون بتصوير فيلم محلي اسمه (اضربوا قليل الشرف). وكان جميع من يقوم بالضرب بمن فيهم رجل الشرطة هم من الممثلين.

تمَّ تصوير هذا الفيلم قبل انقلاب ٢٧ أيار. وكانت فكرة المشهد تحاول شرح كيف كان رجال الشرطة ينهالون على الناس بالضرب، وكيف كانت الحكومة تقف إلى جانب الظالم.. ولهذا السبب لم يتدخل الشعب..

لم يتوقف التصوير عندما هرعت لنجدة المرأة وظهرت أنا في الفيلم، واعتبروا أنفسهم أنهم لم يتضرروا بمبلغ العشرين ألف ليرة وبإمكانهم الاستفادة من هذا المشهد وإضافته للفيلم والتعليق عليه بالقول «كنا نرى خلال فترة الحكم السابق أمثال هؤلاء المواطنين الذين يتحلون بالنخوة والشرف..».

أضحكتنا كثيراً هذه الحكاية التي رواها لنا الرجل الطويل القامة، فأضفت على الجو بعض المرح.. بعد قليل حضرت بعض الفتيات الغجريات وفتحن لنا الفال، ثم مر أحدهم وكان يراقص الدب.. كما مر بعض الغجر الذين يعزفون الموسيقى، ونهضت المرأة التي سألتها في الميناء إذا كنتم ذاهبون إلى منطقة السدود وقالت إننا ذاهبون إلى مكان آخر، وبدأت ترقص معي على إيقاع موسيقى الغجر. وشاركها الرقص

أحد الرجال أيضاً وهو يقوم بمغازلة إحدى الفتيات الغجريات.. وبالمختصر فقد تبدل الجو المشحون الذي كنا فيه وطغى علينا جو من الحبور والسرور.

أصبح الوقت عصراً، عندما هاجمنا النعاس، فذهبنا إلى الغابة القريبة، وفي مكان هادئ بعيد عن أي ضجة استلقى البعض داخل سيارته والبعض الآخر افترشوا الأرض تحت ظلال الأشجار..

وما أن أغمضت عيني حتى قفزت على صوت استغاثة. فظننت أنني أرى حلماً.. لكنه لم يكن حلماً. لأن باقي الرفاق سمعوا الصوت أيضاً. مشينا جميعاً في الغابة متجهين نحو مصدر الصوت، فرأينا تسعة رجال ومعهم فتاة شابة يحاولون الاعتداء عليها، والفتاة تصرخ وتستغيث قائلة:

ـ النجدة.. أليس هناك من منقذ؟

رأيت أحد هؤلاء الرجال كالوحش يدس في فمها قطعة قماش، حتى لا يسمع صراخها.. سرت باتجاه هؤلاء الرجال وسألتهم:

ـ ماذا تفعلون؟

فقال أحد هؤلاء الستة:

ـ إننا نقوم بتصوير فيلم.. تذكرت الحكاية التي كنا نسمعها قبل قليل فوقفت في مكاني.

لم يسبق لي أن شاهدت من قبل الآلة التي تصور الأفلام. لقد كان معهم ما يشبه آلة التصوير، ولم أستطع التأكد فيما إذا كان هذا الشيء هو آلة التصوير أم لا. ونصبوا صفيحة قديمة كاز قديمة بعد ثقبها على بعد ثلاثة أرجل صنعت من أغصان الأشجار وقف شخص آخر بعد أن

خلع جاكته ووضعها فوق رأسه، الذي أدخله وسط الصفيحة تماماً كما يفعل المصورون الذين يقفون في ناحية الشوارع خلف ماكينات التصوير وهم يدخلون رؤوسهم في ماكينة التصوير بعد أن يغطونها بقطعة قماش سوداء. كانت الفتاة تصرخ:

ـ الوحوش.. إنهم ينتهكون عرضي.

وكان أحدهم يحاول تقبيل الفتاة وعضها مثل كلب، وظلت تقاومه بكل قواها، بينما كان شخص آخر يحاول تمزيق ثيابها ونزعها.

حاولت الاقتراب منهم فانبرى لي أحدهم قائلاً:

ـ أرجوك يا أخي لاتقترب لكي لاتفسد الفيلم!..

ثم علقت إحدى السيدات المرافقات لنا والتي كانت ترقص قبل قليل:

ـ إنه فيلم أشبه بالحقيقة!..

وأضاف أحد الرجال الذي كان يرافقنا:

ـ لا أعتقد بأن الرقابة سوف تسمح بعرض مثل هذا الفيلم.

ـ لماذا؟

ـ لأنه فيلم فاضح جداً.

ثم أضاف آخر:

ـ إن الحياة هي المسرح الحقيقي. وعليها تجري جميع الرذائل.

ـ نعم. سيكون فيلماً حقيقياً!..

لقد ساورني الشك فيما إذا كان هذا الفيلم حقيقي أم لا، فيجب أن لايكون فاضحاً إلى هذه الدرجة إنهم يقومون باغتصاب الفتاة أمام

مرأى الجميع، ولم يبق من لباس الفتاة سوى قميصها الداخلي وهي تصرخ وتستغيث.

كان المخرج أيضاً يقول للفتاة عندما تصرخ:

ـ يجب أن يكون الصراخ بصوت أعلى.. ليبدو الفيلم حقيقياً، وليس تمثيلاً. وكان كلما علا صوت الفتاة، شجعها المخرج على الصراخ أكثر!.

أريد هيجاناً أكثر.. هيا ارفعي صوتك أكثر.. أريد صوتاً أعلى كأنك تصرخين حقيقة.

ثم يلتفت المخرج ويصرخ في باقي الممثلين.

ـ هيا اهجموا عليها.. التصقوا بها أكثر.

تحاول الفتاة الهرب ولكن المخرج يتدخل على الفور ويقول:

ـ امسكوها.. لاتتركوها.. ألقوها أرضاً.

أمسكوا بالفتاة وألقوا بها وسط الأعشاب والأشواك.. فامتلأ جسمها بالجروح، وتمزقت ثيابها الداخلية.

اقتربت من المخرج وسألته:

ـ ماهذه الماكينة؟.. هل هي ماكينة تصوير؟

ـ لايمكن أن تكون أفضل من ذلك لأنها صناعة محلية، صنعناها بأنفسنا، لأن الحكومة لا تعطينا عملة صعبة لنقوم بشراء ماكينة تصوير من الخارج.

قالت إحدى النسوة التي كانت برفقتنا:

ـ إنه فيلم مثير.. فيلم دموي.

أجاب المخرج:

ـ سوف نعرضه إن شاء الله في مهرجان كان!..

تستمر الفتاة في الصراخ.

ـ إنهم ينتهكون عرضي!..

يلتفت إليها المخرج ويقول لها:

ـ هيا اصرخي أكثر يا ابنتي.. هذا الصراخ غير كاف.. يجب أن تصرخي بصوت أعلى وكأن عرضك ينتهك حقيقة.. إصرخي.

تصرخ الفتاة بأعلى صوتها:

ـ إنهم يقضون عليّ.

سألت المخرج:

ـ ما اسم هذا الفيلم؟

ـ اسمه «نجلاء المسكينة».

كانوا يقومون بجر نجلاء المسكينة.. ومشاهد الفيلم تبدو لنا وكأنها طبيعية وحقيقية أيضاً. وكنا نود متابعة تصوير أحداث الفيلم ولكن كان بيننا نساء وأطفال، فآثرنا الابتعاد عن المكان الذي يجري فيه تمثيل الفيلم.. وانبرى صديقنا طويل القامة وقال لنا:

ـ هيا بنا دعونا نذهب..

كانوا يقومون بجر نجلاء المسكينة إلى مكان ما داخل الغابة.. لقد طار النوم من عيوننا من الغضب الذي ألم بنا ونحن نتابع أحداث الفيلم، وعدنا ثانية لتناول المشروب، وكنا نسمع أصوات الاستغاثة التي تطلقها نجلاء المسكينة.

ـ النجدة النجدة.. إنهم يعتدون عليّ

كان الصوت يختفي، ثم يعود من جديد، ويصدر صوت استغاثة آخر، حاول بعض الأشخاص أن يهبوا لنجدة نجلاء المسكينة، ولكننا منعناهم من ذلك وقلنا لهم:

ـ لاداعي للقيام بأي تصرف، إنهم يصورون فيلماً!..

فقالوا لنا:

ـ حسبنا أن في الأمر مأساة ما!..

أمضينا يوماً مسلياً ولم نعد إلى بيوتنا إلا في وقت متأخر من الليل، وفي صباح اليوم التالي رأيت في الجريدة صورة الشباب الستة الذين كانوا يقومون بتصوير الفيلم في منطقة السدود، وعنواناً بالخط العريض يقول: «إلقاء القبض على ستة وحوش آدميين الذين اختطفوا فتاة واغتصبوها داخل الغابة».

* * *

٣ ـ المعلمة

أغلقت الجريدة التي كنت أعمل بها بموجب قانون الطوارئ. على النحو التالي:

الساعة تقارب التاسعة عشرة. وكنت أعمل مراسلاً للجريدة إلى وزارة العدل و دوائر الأمن. وبينما كنا في ذروة عملنا دخل علينا السيد حسن، هو شرطي مدني موظف في الشعبة الأولى في مديرية الأمن، المسؤول عن شؤون الصحافة. رجل أسمر الوجه بشوشاً. لكن الصحفيون كانوا يتشاءمون عادة لدى رؤية ابتسامته، لأنه يخفي وراءها فألاً سيئاً.

فالشرطي حسن نقل إلينا ذات مرة وفاة أحد الصحفيين وهو يبتسم كأنه يزف إلينا بشرى!....

عندما شاهد رئيس التحرير الشرطي حسن مبتسماً، همس في أذني قائلاً:

ـ لا بد أن في الأمر سوء...!

بعد ذلك زف حسن البشرى إلينا وقال:

ـ أبلغكم بقرار إغلاق مكتب جريدتكم.

خرجت كلمة أبلغكم من فمه وكأنه يقول أهنئكم.

سأله رئيس التحرير:

ـ ما هو السبب؟...

أجاب الشرطي حسن:

- إنها أوامر إدارة الطوارئ.

وأطلق ضحكة عندما ذكر كلمة «الطوارئ» وكان في غاية السرور.

عندما يتعلق الأمر بإدارة الطوارئ فلا يمكن لأحد أن يسأل «ما السبب، لماذا، كيف، وما الداعي».

سأله رئيس التحرير:

- هل هناك أمر خطي؟...

- سوف يرسلونه لاحقاً...

كان رحمة الله عليه يقوم بأداء وظيفته على أكمل وجه فهو لم ينتظر حتى يصله الأمر الذي تبلّغه هاتفياً. بل يسارع إلينا ليبلغنا هذا الخبر السيئ فوراً.

رغم ذلك كانت تلك الأيام جيدة نسبياً. لأننا كنا سابقاً لا نستطيع السؤال عن الأمر الخطي، حتى أنهم كالعادة لا يرسلون أوامر خطية أصلاً... معنى ذلك أننا نعيش الآن في عهد ديمقراطي نسبة إلى وضعنا قبل ستة أشهر.

على أية حال لم يمض كثير من الوقت حتى سمعنا صوت دراجة نارية تقف عند باب الجريدة. وكنا سابقاً بمجرد سماع صوت هذه الدراجة معناه أن هناك أمر ما يتعلق إما بمنع نشر بعض الأخبار، أو بإغلاق الجريدة، أو ما شابه ذلك من أوامر سيئة.... لقد كان الشرطي الذي جاء على الدراجة النارية يحمل إلينا الأمر الخطي الصادر عن

إدارة الطوارئ بإغلاق الجريدة.

لم يكن بقدرة السكاكين فتح أفواهنا. تفرقنا بدون أن ينطق أحدنا بأي كلمة. كان عدد موظفي الجريدة ستة وعشرون موظفاً، وكنا نحن سبعة موظفين قد نقلنا إلى هذه الجريدة من جريدة أخرى قبل عشرة أيام، لأن تلك الجريدة أغلقت أيضاً بموجب قانون الطوارئ

في تلك الأيام لم يكن هناك ما يُلزم صاحب الجريدة بدفع أجور العاملين، ولم يكن صندوق الضمان الجماعي معروفاً أيضاً، أي كنا نعاني من البطالة والإفلاس معاً. إنتقلتُ إلى العمل بعد ذلك في جرائد أخرى، وبدلتُ ثلاث جرائد خلال شهرين... حيث تم إغلاق الجرائد الثلاث بموجب قانون الطوارئ الواحدة تلو الأخرى. وبناء على ذلك إزدحمت رئاسة الوزراء بالصحفيين والكُتّاب العاطلين عن العمل.

أما الصحف التي استمرت بالصدور فقد زاد عدد العاملين فيها أضعاف ما كانوا عليه في السابق، وكان عدد الأشخاص الواقفين في الطابور في إنتظار أي شاغر ومهما كانت منزلته، لا يقل عن عشرة أشخاص.

لم نعد نحتمل هذه البطالة التي استمرت شهرين، وفي أحد الأيام وبينما كنا جالسين في جمعية الصحفيين أسرّ لي أحد الأصدقاء قائلاً:

ـ هناك وظيفة مصحح شاغرة في جريدتنا، وقد رشحتك أنا لهذه الوظيفة وسوف يقبلونك غالباً، لذلك عليك الإسراع في المجيء قبل أن يسمع أحد غيرك بهذه الوظيفة.

هناك ميزة أخرى لهذه الصحيفة، وهي أن العمل فيها مضمون. لأن قانون الطوارئ لا يمكن أن يمسّها، فصاحبها نائب في البرلمان ومن

كتلة الحزب الحاكم. أي ليس هناك احتمال بإغلاقها وتركنا عاطلين عن العمل.

عندما بدأت العمل في هذه الجريدة، كان صاحبها النائب في البرلمان في أوروبا، وكان أصحاب الجرائد بخلاء جداً. ورغم ذلك فإنهم لم يستطيعوا الوقوف على أرجلهم، ولم يجدوا لهم مكاناً تحت الشمس... حتى أن معظمهم اندثرت أسماؤهم وطواهم الزمن. كما أنهم لم يستطيعوا اللحاق بركب التطور والتصنيع، الذي شمل مهنة الصحافة، والإعلام، ومع ذلك أصبح جميعهم من أصحاب الملايين.

ولأن صاحب الجريدة بخيل جداً فهو لم يضع خط هاتف مستقل في كل غرفة، ولم يكن في مبنى إدارة الجريدة سوى خطين للهاتف، أحد هذه الخطوط في غرفة المدير والآخر في غرفة المحررين، وكان عملي مساء في غرفة المحررين. لأن الغرفة تكون خالية من المحررين في ذلك الوقت. وهي مجاورة لغرفة المناوب الليلي، فعندما يتصل أحد بالمناوب الليلي هاتفياً، كنت أنقر عليه الجدار الفاصل بيننا لأخبره بأن هناك من يريد الاتصال به.

كان المناوب الليلي شاباً مغرماً بالنساء، وله علاقات حميمة مع الكثيرات، من مطربات وراقصات، وممثلات سينما وغيرهن. ويصله كل ليلة ما لايقل عن عشرة أو خمسة عشر اتصال هاتفي منهنّ، وكنت في كل مرة أنقر على الجدار لأبلغه عند كل اتصال، إضافة إلى هذه الاتصالات كان في أغلب الأحيان يختلي في غرفته بإحدى السيدات، لذلك لم يكن يحضر لغرفته، أو يحضر متأخراً، أو يمتنع الإجابة على هذه الاتصالات.

كنت مسروراً جداً لأنني وجدت عملاً، وكنت أخشى كثيراً من تسريحي لأنني عانيت كثيراً من البطالة والإفلاس، وقبلت بأقل الأجور وبأكثر الأعمال إرهاقاً وحاولت التفاهم مع الجميع، وتلبية كل ما يطلب مني، وكان صديقي الذي أوجد لي العمل يوصيني دائماً.

ـ لا تخشى أي أحد سوى زوجة المعلم. وإذا لم تصطدم معها فلا أحد يستطيع أن يخرجك من هذه الجريدة.

ـ وما دخلي أنا بزوجة المعلم؟..

ـ لاتقل هذا.. إنها بلاء من الله، وهي تحشر أنفها في كل شيء.

كان جميع العاملين في الجريدة يرتعدون خوفاً من زوجة المعلم، ويطلقون عليها أسماء عديدة، مثل الملكة، أو الإمبراطورة، أو «المعلّمة» ولن تجد أحداً في الجريدة لا يخاف من هذه المعلّمة، فهي تصطدم مع الجميع وتشتمهم.

في إحدى الليالي وكان قد مضى على دخولي الجريدة حوالي الثلاثة أشهر، وبينما كنت أمارس عملي اليومي وأنا منهمك في تصحيح بعض المقالات الجريئة حين سيطر علي جو من الجرأة الذي طغى على تلك المقالات، رنّ جرس التلفون وسمعت صوت نسائي .. فقلت في نفسي لابد انهم يطلبون المناوب الليلي.

نقرت عدة مرات على الجدار كي يسمع المناوب فيأتي ويرد على الهاتف، وقلت للمرأة التي تنتظر على الهاتف «دقيقة.. سوف يأتي يا سيدتي» ولم أقفل سماعة الهاتف بل وضعتها على الطاولة بانتظار مجيء المناوب. وتابعت عملي في تصحيح المقالات التي تعلقت بها كثيراً، وبعد انتهائي من التصحيح وجدت أن سماعة الهاتف مازالت

مفتوحة، ومعنى ذلك أن المناوب ليس في غرفته، أو أنه يقوم بإنضاج طبخة جديدة.

أغلقت السماعة، وعلى الفور رن الجرس من جديد.

- تفضلي يا سيدتي.

- ولك.. من تكون أنت؟..

- من هي السيدة التي تكلمني بهذه الطريقة، فصرخت غاضباً وقلت لها:

- ومن تكونين أنت؟..

كنت أظن أن السيدة التي تتكلم في التلفون هي إحدى السيدات اللواتي يكلمن المناوب عادة في كل ليلة، ولم اكن اعرف أن المتكلم هو المعلمة..

قالت لي السيدة:

- ألم أطلب منك المناوب الليلي؟..

- نعم، وأنا نقرت له على الجدار.

- حسناً ولماذا لم يأت؟..

- وكيف لي أن اعرف؟..

- شوف ولك؟.. سآتي.. وأمزق فمك.

لم أكترث لها إنها امرأة شارع فقلت لها بسخرية:

- على مهلك..

وانبرت السيدة بكيل الشتائم من العيار الثقيل فقلت لها:

ـ إن تربيتي لا تسمح لي بالرد عليك.

علا صياحها وشتمها أكثر من ذي قبل.

ـ آه يا مجنون.. ومن أين لك هذه التربية.. يا قليل التربية..

ـ اغلقي فمك.. أنت قليلة التربية.

ـ أنت حمار...

ـ الحمار هو أنت..

ـ الحيوان هو أنتَ..

انظروا إلى هذه المرأة المجنونة فهي لاتكف عن الشتائم. رغم أنني كنت أرد على شتائمها وأقول لها أنت وأخيراً قالت لي:

ـ سوف ترى عندما آتي إليك !..

فقلت لها:

ـ تعالي هنا. لنرى من منا سوف يرى الآخر..

ـ تفه عليك.. رزيل.

ـ أنتِ من يستحق أن يبصق في وجهه يا مجنونة.. العمى.. ماذا تريدين مني؟..

ـ آه.. إنه سيغمى علي.. ألم أطلب منك المناوب الليلي، وأنت قلت لي دقيقة يا سيدتي، يا لك من حمار...

كانت تنهال عليّ بالشتائم كالرشاش، وبدون توقف، وكنت أرد على كل واحدة من شتائمها وأقول لها:

ـ أنتِ.. أنتِ.. أنتِ.

ـ هيا أرسل لي المناوب بسرعة.

ـ اخرسي.. أنا لست أجيراً عند أبيك.. شوفي واحداً غيري..

بعد ذلك رفست الجدار بغضب وصرخت للمناوب بأعلى صوتي:

ـ تعال رد على هذا التلفون يا أخي.. إنك تجلب البلاء على رأسي بسبب تعرفك على أمثال هؤلاء النسوة. لقد تعمدت أن أتكلم بصوت عال كي تسمع تلك المرأة.

بعد ذلك جاء المناوب الليلي، وبدأ يتكلم بالتلفون:

ـ تفضلي يا سيدتي الهانم.. أوامرك يا سيدتي.. كيف؟.. لا!.. ماذا تقولين؟..

إنني أعتذر كثيراً.. محسوبكم.. أرجو المعذرة.. نحن.. نعم.. المصحح.. لقد باشر حديثاً. على الرأس والعين يا سيدتي.. طبعاً. بكل سرور يا سيدتي، مع احترامي الشديد يا سيدتي..

امتقع لون المناوب وقال لي بعد أن اغلق سماعة التلفون.

ـ ماذا فعلت أنت؟..

ـ ماذا فعلت؟

ـ لقد شتمت المعلمة..

كاد يغمى عليّ فقلت لصديقي:

ـ لابد أنني سوف أطرد من الجريدة أليس كذلك؟

قال المناوب الليلي:

ـ المعلم الآن في أوروبا، وسوف يقوم بطردك عندما يعود.

ـ حتى إذا توسلت إليه؟.. وطلبت منه العفو، وقلت له أنني أخطأت؟.

ـ لا أعتقد أنه سيقبل، فهو يخاف زوجته كثيراً.. إنه يرتعد خوفاً منها.. وهو لا يخالف ما تقوله زوجته أبداً..

معنى ذلك أنني سأواجه البطالة والإفلاس مرة أخرى، وسوف تسوء الأمور من جديد. وفيما كنت أفكر بمرارة، رنّ جرس الهاتف، وكانت المعلّمة هي المتكلمة.. فقلت في نفسي أنني مطرود لا محالة، لذلك فالأفضل أن أتصرف بشجاعة.. أجبت على الهاتف بغضب وقلت لها:

ـ ماذا تريدين؟

كنت أعتقد أنها سوف تصرخ في وجهي غاضبة ولكنها تكلمت معي بهدوء وقالت:

ـ لماذا كنت تكلمني قبل قليل بتلك الطريقة؟.. هل لأنك لم تكن تعرف من أنا؟..

ـ كلا لقد كنت أعرف أنك أنت المعلمة تلك المرأة الشريرة أليس كذلك؟.. انصرفي عني فأنا لا أريد أن أتكلم معك.

ارتفع صوت السيدة من جديد وقالت:

ـ ماذا تقول؟.. يعني أنك قلت ما قلته عن معرفة وإصرار؟..

ـ نعم عن معرفة.. ماذا تريدين؟..

بعد ذلك أغلقت الهاتف في وجهها.

لم يعد هناك أي بارقة أمل، ولابد أنني مطرود.. وبعد أسبوع من

هذه الحادثة رجع المعلم من جولته، وكنت أرتعد خوفاً من هذه العودة. وفي اليوم التالي لعودته أرسل في طلبي.. دخلت غرفته وأنا واجم وكنت أفكر في التوصل إليه، علّه يشفق عليّ ولا يطردني من العمل.

كان المعلم رجلاً شرساً.. وضعت يداي الإثنتين على بطني ووقفت أمامه. فقال لي:

ـ تفضل بالجلوس يا بني..

ـ عفواً يا سيدي.

ـ اجلس يا بني، اجلس.

كان يتكلم وهو يضحك، فجلست على المقعد الذي أمامه. فقال لي:

ـ أهنئك .. حياك الله.. أنا مدين لك مدى العمر، لأنك أغمضت عيناك وفتحت فمك على زوجتنا.. حياك الله.. برافو.. لقد انتقمت لمعاناتي مع هذه السيدة التي استمرت ثمانية عشر عاماً.. إنها لاتترك مجالاً لأحد ليتحدث معها، فكيف استطعت أنت أن تشتمها بهذا الشكل؟..حسناً فعلت.. أنا اعرف ماذا يمكن أن يصدر عنها من شتائم، وعانيت كثيراً من ذلك.. هيا اذهب إلى الإدارة في الطابق السفلي، لقد أخبرتهم بأن يمنحوك مكافأة مقدارها خمسون ليرة، اذهب واقبضها.

قبضت الخمسين ليرة من المحاسبة، وبدأت أهرع من ذلك الوقت كلما سمعت جرس الهاتف يرن، عسى أن يكون المتحدث هو المعلمة، لكي أقوم بشتمها بملء فمي ولكي أقبض خمسين ليرة أخرى كإكرامية. لكنها لم تتصل بالهاتف بعد ذلك التاريخ.. جاءت بنفسها

في مساء أحد الأيام ودخلت إلى الغرفة التي أعمل بها وكنت بمفردي فسألتني.

ـ هل أنت المصحح؟

ـ نعم.

ـ وهل أنت من شتمني بالتلفون؟..

فهمت في ذلك الوقت أن السيدة التي تحدثني هي المعلمة. كان الوضع بيننا مختلفاً كثيراً بعدما أصبحنا وجهاً لوجه، فلم أفتح فمي بكلمة، ولم أرفع رأسي، فقالت لي:

ـ أهنئك.. لأنني أحب الأشخاص الصريحين الذين لا يخفون شعورهم. لا تهتم لتصرفاتي لأنني أعاني من قرحة معدية، ولذلك فإن أعصابي متوترة باستمرار.

لقد قلت لصاحبنا أن يعطيك مكافأة مقدارها مائتي ليرة هل أعطاك إياها؟

معنى ذلك أنها هي التي أمرت المعلم لكي يعطيني إكرامية.. إنها المعلمة.. ولكن لماذا دفع المعلم لي خمسين ليرة فقط، إذا كانت هي التي أمرت بإعطائي مائتي ليرة؟..

ثم سألتني:

ـ لماذا أنت ساكت.. هل قبضت الإكرامية أم لا!.. فأنا أعرفه، إنه بخيل جداً.

بعد ذلك ذهبت إلى غرفة زوجها وعلا صوتها، وبدأت بالشجار.. ثم أرسلوا في طلبي فسألني المعلم وهو يكاد يبكي.

ـ ألم تأخذ الإكرامية التي أمرت بصرفها ومقدارها مائتي ليرة؟..

كانت المعلمة تنظر في وجهي، ثم تنظر في وجه زوجها والشرر يتطاير من عينيها.

فكرت بماذا أجيب فلو أجبت بأنني لم أقبض فإنها ستنهال على زوجها بالضرب. وإذا أجبت بأنني قبضت فقد أتعرض أنا للضرب.

قلت للمعلم جواباً على سؤاله:

ـ لقد قبضت يا سيدي القسط الأول من المكافأة التي أمرت بصرفها وقدره خمسون ليرة وبقي مبلغ مائة وخمسون ليرة من المكافأة سأقبضها على أقساط في الأشهر التالية.

ـ أرأيت يا عزيزتي؟. هل صدقتني الآن؟

عندها التفتت إلي المعلمة قائلة:

ـ هيا يا ابني اذهب بسرعة واقبض باقي الإكرامية الآن.

* * *

٤ ـ المتقاعدون.. أيديهم ثقيلة

ذات مساء تواجد أربعة من أصدقائي المتقاعدين في مقهى الحي. وكان أحدهم ضابطاً جدياً للغاية، مشيته ونظراته وتقاطيع وجهه تؤكد هذه الجدية.

أما الثاني فكان محافظاً تعلو وجهه ضحكة ماكرة، يفتح ذراعيه على العريض ويسير بخيلاء وعجرفة.

وربما لم يكن الأول ضابطاً متقاعداً، كما لم يكن الثاني محافظاً، وإنما يبدو عليهما مثل هذا الانطباع.

أحد هؤلاء المتقاعدين الأربعة مصاب بالشلل، يتكئ على عصاه أثناء سيره وكان يسحب إحدى رجليه بصعوبة، ولا يتدخل كثيراً في الحديث.

أما المتقاعد الرابع فكان دميماً قصير القامة بشرته بيضاء، تعلو وجهه تجاعيد كثيرة. بالإضافة إلى أنه لا يستطيع مسك فنجان القهوة لفترة طويلة لرعشة في يده.

كان هؤلاء الأربعة يتحدثون عن سياسة الإنكليز وعن الجيش الألماني، ثم يتشعب الحديث ويصل إلى حديث عن القبضايات.. القبضايات القدامى، وكيف انهم لا يتعاركون كرعاة البقر الأمريكيين الذين لا يتعدى عراكهم تبادل الكلمات، وكيف أن تسديد الكلمات يعتبر تصرفاً عادياً ودونياً في نفس الوقت، كما أن هذا العراك أشبه ما

يكون بخرمشة الوجه، أو عض اليد.. وبالتالي فإن تبادل الكلمات أثناء العراك تصرف نسائي قبل أي شيء آخر.

لكن عراك القبضايات القدامى، كان يحصل بطريقة أخرى، فهم يتبادلون الصفعات، ويالها من صفعات حيث يكاد الشرر يتطاير من عيني من يتلقاها!.. وأضاف المحافظ المتقاعد:

ـ صدقْت.. حتى أن هناك مثل يقول: «صفعة الحق، لاثمن لها» انظر إلى الشاعر فهو لا يقول «كلمة الحق» بل صفعة الحق.

تدخل المتقاعد المشلول في الحديث فقال:

ـ الكلمة يستعملها الذين ينتمون إلى طبقات دونية، أما أولاد الأصول فلا يتشاجرون أبداً بطريقة تبادل الكلمات.

اشترك الضابط المتقاعد في الحديث قائلاً: «في أحد الأيام..» كانت يدي قوية.. قوية جداً.. إذا ضربت أحداً قضيت عليه، حتى أن أصدقائي في المدرسة كانوا يلقبونني كناية بـ «صفعة الحق».. وعندما كنت معتقلاً في سجن عكا، كان رئيس الشرطة ضابطاً إنكليزياً واسمه طومسون، وطومسون هذا من عداد الملاكمين الأشداء يستيقظ صباح كل يوم ويلبس القفازات ويبدأ بكيل اللكمات إلى كيس رمل ربطه على أحد الأعمدة و... يبدأ طومسون هذا باستفزازنا والنيل من كرامتنا بكلمات مثل: «أين قوة الجندي التركي وبسالته التي تتحدثون عنها»؟.. إنني لا أرى شيئاً من هذا القبيل، هل يوجد بينكم من يبارزني في الملاكمة.

مضى يوم.. إثنان والأصدقاء يقولون لي «هيا يا حقي أوقفه عند حده وعرفه حدوده». أرسلت خبراً إلى طومسون مع المترجم وقلت له:

«إننا لا نكيل الكلمات في الهواء هكذا لهواً ولعباً.. إننا ننهي أمورنا عند اقتضاء الحاجة وبعون الله بكف واحد»!.. ضحك المترجم الإنكليزي وذهب إلى طومسون وأخبره..

وفي أحد الأيام سمعنا صوتاً ينبعث من الصفوف الخلفية لمهجع الأفراد، حيث ينام الضابط بعيداً عنهم، كان الصوت يدوي عالياً ولم يكن يشبه صوت إنسان بل أشبه ما يكون بزئير الأسود يقول »دستور يا علي.. دستورنا يا سيدنا.. دستور، بسم الله«. بعد ذلك برز أحد العساكر واتجه إلى قسم الضباط الإنكليز، كان هذا العسكري قصير القامة ولايكاد يصل طوله إلى خصر الضابط الإنكليزي، قفز هذا النفر كالديك على الضابط الإنكليزي وصفعه بسرعة لدرجة أننا لم نلمح يد النفر ترتفع في الهواء، وكما قال الأجداد فإن «النار تنتج من احتكاك جسمين صلبين مع بعضهما» وهذا ما حدث فعلاً. وبمجرد أن نزلت كف العسكري على وجه الإنكليزي تطاير الشرر، ثم سمعنا بعد برهة صوتاً يلعلع كالرعد..فهل تعرفون ماجرى؟.. لقد سقط زناد المسدس الذي كان يضعه الإنكليزي على خصره من شدة الكف، وخرجت طلقة من المسدس.. عند ذلك بدأ طومسون يدور على قدميه (كالدوامة) لمدة عشر دقائق ثم سقط على الأرض وتمدد كلوح الخشب.. لكن الإنكليز أناس متمدنون، فبعد أن رقد الإنكليزي أسبوعاً في المستشفى فاقد الوعي، هل تعرفون ما هي أول كلمة نطق بها عندما غادر فراشه؟.. لقد طلب مقابلة العسكري الذي ضربه ذلك الكف.

ولما قابله شدّ على يده وقال له:

ـ .. أحسنت.

بعد ذلك كان طومسون يصر على الجندي التركي قائلاً «أريدك أن تعلمني طريقة ضربة الكف». وذات يوم قلت للسيد طومسون.

ـ أرأيت يا ماجور طومسون كيف أن النفر عندما ينزل صفعة فلا يستطيع أن يقف أمامه أحد، سواء أكان نقيباً، أم ملازماً، أم مساعد أول أو مهما كان. ثم أريدك أن تكون فهمت لماذا نحن لا نحب الملاكمة!.. لأن الكف الذي أنزله هذا النفر كان السبب في انطلاق الرصاصة من المسدس، فما بالك لو كان من ضرب ملازماً، عندها لابد وأن تشتعل الجبهة بأكملها.. كنت في ذلك التاريخ برتبة ملازم أول.

كان الضابط المتقاعد يروي لنا هذه الحادثة مرة أو مرتين في اليوم، وبعد قليل يبدأ بشرح تلك القصة أيضاً.

ـ ولكنها كانت صفعة قوية.. ورفع يده في الهواء ليشرح لنا كيف تمت الصفعة، فترتطم يده بكوب الماء على الطاولة، فينقلب، ويُصاب العسكري المتقاعد بنوبة من السعال تدوم لأكثر من دقيقتين.

بعد ذلك بدأ الرجل المشلول حديثه قائلاً:

ـ محسوبكم يده كالنار.. ومازالت كذلك حتى الآن، كما أن جميع أفراد عائلتنا يتمتعون بنفس الميزة. كان عمي المرحوم يقود عربة السراي، ونظراً لأنه كان رجلاً أميناً جداً فقد كان يرافق السلطان دوماً في نزهاته، وفي أحد الأيام بينما كانت السلطانة ثريا معه في العربة تقوم بنزهة في أطراف المدينة. بعكس الفتيات اللواتي يركبن العربات في تلك الأيام، اعترضت طريقهم عربة مكشوفة، وبدأت هذه العربة

KMH

تسير بجانب عربة عمي، وشرع الشبان راكبي العربة بإلقاء بعض كلمات الغزل، وأعادوا ذلك أكثر من مرة، عندها ثارت ثائرة عمي غيرة على السلطانة، وقال لسائق العربة الذين كان يمر بجانبه بحزم.

- إياك أن تمر من جانبي مرة أخرى.

لكن أولئك الشباب المائعين الذين كانوا يركبون العربة المكشوفة، لم يسمعوا كلام عمي وداروا ثانية من جانب عربته، عندها قام عمي بإنزال صفعة قوية على وجه سائق العربة المكشوفة. وحسبما روى لنا عمي القصة أن العربة المكشوفة كانت تمر على يساره بسرعة وبمجرد أن أنزل صفعته تلك، انقلبت العربة بالشباب ولم ينج منهم أحداً بما في ذلك أحصنة الجر.

لفظ السائق أنفاسه من جراء صفعة عمي وسقوطه على الأرض، وحكم على عمي بالسجن عشر سنوات، وبعد مضي شهر واحد على سجنه، وبما أنه ارتكب جريمته دفاعاً عن شرف السلطان، فقد أصدر السلطان عفواً خاصاً بشأنه وأطلق سراحه وعيّنه رئيساً لسائقي عربات القصر، لكن عمي اعتذر من السلطان لأنه لم يعد يرغب بقيادة أي عربة، فتلطف السلطان لحاله، وأكرمه بمبلغ كبير من المال وقبل اعتذاره.

لكن المرحوم عمي كان من أصحاب الكيف، فأنفق مبلغ المنحة السلطانية على تأسيس خمارة كبيرة في أهم مناطق المدينة وبدأ بإدارتها بنفسه.. كان عمي قد تقدم بالعمر، وبالطبع هناك احترام لكبار السن.. ولم يكن محسوبكم يخطو خطوة واحدة داخل هذا الدكان. وكنت إذا مررت من هناك أسير فوق الرصيف المقابل

للدكان. كان عمي يجلس دوماً أمام الواجهة مع عشيقة يونانية جميلة جداً لكنها متقدمة في السن، وكنت كلما مررت أمام الخمارة أشاهد هذه العشيقة جالسة مع عمي. وهما يتعاطيان المشروب، لم يزرنا عمي مع عشيقته في بيتنا أبداً.. لأنه كان لا يحب التدخل في شؤون أحد، كما كان ذو صدر واسع، ولايريد أن يزعج نملة، إذا لم يعتد عليه أحد.

تقدم به العمر كثيراً.

وكان في ذلك الزمان أحد القبضايات المشهورين واسمه (الشعرة)، وقد سمع عمي بشهرته. ومن عادة القبضايات في ذلك الزمان، القيام بتحديد القبضايات المشهورين الآخرين، ليكتسبوا شهرة أكثر واسماً أكبر، وكان عمي أحد هؤلاء القبضايات المشهورين أيضاً رغم تقدمه بالسن كان الشعرة شديد الإعجاب بعمي ويقول كلما رآه:

ـ انظروا إلى هذا الرجل لقد قتل شخصاً بمجرد أن صفعه!..

وكان الشعرة معتاداً على ارتياد حانة عمي، وفي أحد الأيام وبينما كان عمي جالساً كعادته مع عشيقته عند مدخل الخمارة وهو يتناول المشروب معها، نظر الشعرة بطرف عينيه إلى عشيقة عمي، وبدا يبرم شاربه، عدّ عمي المرحوم حتى الثلاثة، واحد اثنين، ثلاثة، وهو يحاول أن يتحمل. في نفس الوقت ينظر إلى الشعرة ويقول في نفسه:

ـ آه كم كنت أتمنى لو أنني صادفت هذا الرجل أيام الشباب، كنت سألقنه درساً لن ينساه مدى الحياة، ولكن ليس باليد حيلة، فقد تقدم بي العمر، وأنا لست بوزنه الآن، ظل هذا الشعور يلازم عمي،

ولأنه أصبح رجلاً ناضجاً فهو يحاول دائماً أن يغض النظر بعض الشيء عما يراه.

لكن الشعرة كان مصراً على افتعال مشكلة، وفي أحد الأيام عندما دخل الشعرة إلى الخمارة جلس على الطاولة المجاورة لطاولة عمي، وبدا يختلس النظرات بين الحين والآخر وهو ينظر إلى عشيقة عمي ثم يتنهد ويرفع القدح وكأنه يشرب نخبها. كان عمي يستند بعكس يده اليمنى على الطاولة ويمسك القدح بيده اليسرى. ويتناول المشروب بمنتهى الهدوء، محاولاً السيطرة على أعصابه، لكن الشعرة زاد من حدة تصرفاته لدرجة أن عمي لم يعد يستطيع الاحتمال فقال له عمي:

ـ يا بني.. إن هذه السيدة بمقام والدتك.. لذلك فإن ما تفعله عيباً، أليس كذلك؟.. ما أن انتهى عمي من كلامه حتى أطلق الشعرة صرخة قال فيها (حياة) ثم هجم على عمي، فترك عمي القدح من يده ووضعه على الطاولة فأصبحت يده اليسرى خالية وكان لا يزال يرتكز بعكس يده اليمنى على الطاولة، وأنزل صفعة مقلوبة لظهر كفه اليسرى على وجه الشعرة الذي كان يهجم عليه، فسقط الشعرة على الأرض وتمدد كاللوح، وعاد عمي ليشرب العرق وكأن شيئاً لم يحدث!..

بقي الشعرة نصف ساعة ممداً على الأرض، بعد ذلك سأله أحد أصدقائه «ألم يكن لديك سكين؟..» فقال الشعرة: «كان لديّ». «كان لديّ وكنت سأقضي على الرجل، ولكنني خشيت من أن يضربني كفاً آخر لذلك لم أشهر السكين»، جميع أفراد عائلتنا هكذا أيديهم ثقيلة. في أحد الأيام انزعجت كثيراً من أحد باعة السمك، ولا أدري

كيف تحركت يدي وضربته كفاً..

أما المتقاعد المشلول فقد تذكر الكف الذي ضربه وظن أنه ضربه في أحد الأيام، وتصرف وهو يروي تلك القصة وكأنه يضرب الكف الآن، فأصاب بعكس يده مؤخرة الكرسي التي كانت بجانبه فتألم كثيراً، وتغيرت سحنته ثم استند على عصاه وقال:

ـ إنني حتى الآن، وبفضل من الله إذا ضربت أحداً، فسألقيه أرضاً.

ثم جاء دور أصغر هؤلاء المتقاعدين الأربعة الرجل القصير القامة بالحديث فقال:

ـ أنا لا أستعمل يدي اليمنى أبداً.. بل يدي اليسرى دائماً. وهذه لاأصفع فيها إلا بالمقلوب..

كان يتحدث وتجاعيد وجهه تتحرك، ويداه ترتجفان. بعد ذلك عدلّ من وضع نظارته على عينيه وتابع حديثه.

ـ بالأمس مرت على رأسي حادثة: فقد اشتريت موزاً ودفعت لرجل خمسين ليرة، وانتظرت أن يعيد لي الباقي، ولكن الرجل قال لي إنك لم تعطني نقوداً. فقلت له أعطيتك.. لم تعطني.. أخيراً قلت له: «خذها إذن»..

وبينما كان الرجل القصير يشرح لأصدقائه كيف صفع بائع الموز، ورفع يده اليمنى وقال:

ـ لقد صفعت الرجل... فاختل توازنه لأنه رفع يده بسرعة وتدحرج من على الكرسي وسقط على الأرض، وبقيت رجلاه مرفوعتان في الهواء، حاول النهوض لكنه لم يستطع وظل مستلقياً على الأرض متابعاً حديثه:

ـ أنا عندما أصفع أحداً فإنه يتدحرج على الأرض هكذا!.. تماماً كما أنا عليه الآن.. لا أدري كيف ضربته؟.. لقد حماه الله.. وإلا كان من الممكن أن يموت من قوة تلك الصفعة..

هرع الخادم، ورفع الرجل القصير من على الأرض بمساعدة أصدقائه الثلاثة، وبعد أن نفض الغبار عن ملابسه، تابع حديثه قائلاً:

ـ إن يدي ثقيلة جداً، وقسماً بالله العظيم، فإنني أستطيع أن أعطب الرجل الذي أضربه.

* * *

٥ ـ عبدٌ أسير

إذا كنتم ترغبون في معرفة عنوان العمارة التي جرت فيها هذه الحادثة فإليكم العنوان «نيشان تاش ـ زقاق أنكينار ـ عمارة نور»

العمارة مؤلفة من أربعة طوابق، وفي كل طابق شقتان، كنا قد انتقلنا حديثاً إلى هذه العمارة وسكنا في الشقة رقم ٧. أما الشقة رقم ٨ فهي خالية غير مسكونة.

وبعد مرور أربعة أيام على انتقالنا إلى هذه الشقة على ما أعتقد، وبعد تناولنا طعام العشاء، وبينما كنا نجهز أنفسنا للذهاب إلى السينما، قُرع جرس الباب، كان أمام الباب طفلة لايتجاوز عمرها ثماني سنوات، قالت هذه الطفلة أن أباها وأمها يرغبان بزيارتنا إذا لم نكن مشغولين، أو لم يكن هناك إزعاج.. وهكذا أُرغمنا على عدم الذهاب إلى السينما!..

بعد قليل جاء الزوجان اللذان يسكنان في الشقة رقم ٤. كان الرجل طبيباً، أما زوجته فهي ربة منزل.. إن إيجاد الموضوع الذي يمكنك التحدث به مع من تتعرف عليهم حديثاً، ليس بالأمر السهل، ولكن من محاسن الصدف أن زوجة الرجل ثرثارة بالدرجة الأولى بدأت بالحديث ونحن نشرب الشاي.

ـ هل تعرفتم على الجيران القاطنين في الشقة رقم ٢؟

أجابت زوجتي: كلا يا سيدتي.

ـ أمان إنها عائلة مميزة.

كان الزوجان يخطفان الكلام من فم بعضهما البعض.

ـ إنهم يسكنون تلك الشقة منذ ما يقارب الأربع سنوات..

ـ كلا يا هانم.. لقد تجاوزا خمس سنوات.

ـ أنت مخطئ، فعندما انتقلوا إلى هذا البيت كان ولدنا مازال يرضع.

ـ حسناً.. متى بدأ فطامه؟.. في الخامسة أم في السادسة من عمره؟.

ـ على كل إنها عائلة مميزة يا سيدي.. لديهم طفل واحد فقط، جميل كالملاك.

ـ مهذب وهادئ وتربية عالية، لم نر شبيهاً له.. فالتربية هبة من الله، ولايمكن الحصول عليها بالقوة.

ـ يمتلك ذكاءً خارقاً، رغم أنه في سن الرابعة أو الخامسة عشرة، لكنه يملك عقلاً راجحاً.. عقل رجل كبير.

ـ لايعرف اللهو أو اللعب، ولايخرج إلى الشارع يقضي وقته كله في الدراسة.

ـ لديه قابلية العلم، يعرف كل شيء.. أما الشيء المحير للعقل، هو كيف خلّف الأب والأم مثل هذا الولد؟.. إنها حكمة الله..

ـ كان دائماً الأول في مدرسته، اسمه دوماً على لوحة الشرف.

ـ لكن مافائدة ذلك، فالأم ليست أماً، والأب ليس أباً. الأم جاهلة والأب غارق في عمله حتى أذنيه.

ـ إنهما لا يعرفان قيمة هذا الولد أبداً.. يضربونه، يعذبونه، يسخرون منه دائماً.. آه يا ربي.. كم تحمّل هذا الطفل؟ أمه لا تحسن التصرف، ولاتعرف كيف تكون الأمومة فهي تؤنبه دوماً وتقول له «يا مغفل.. يا كسول.. جميع الأطفال أفضل منك».. آه يا ربي.. يا لفظاظة هذه الأم.. وطريقة تعاملها! لقد غابت الابتسامة عن وجه الولد وصار يستحق الشفقة.

ـ مع كل هذا كانوا يضربونه.. صدقوني حتى الحجارة استجارت من أصواته واستغاثاته.

أما الأب فكان كالوحش لا شبيه له بالآباء. لو رأيته كيف ينهال عليه بالضرب.. كما يبخل عليه بالمصروف ولايعطونه حتى ولا خمسة قروش.

ـ أدت هذه التصرفات إلى انحراف الولد ،أصبح ولداً سيئاً مهملاً لدروسه وعوض عن وضع اسمه في لوحة الشرف، كان يعيد امتحانه ويرسب في العام التالي..

ـ أضحى كأولاد الشوارع، تمر أيام عدة وهو بعيد عن البيت.. والآن لو رأيتم حال أمه وأبيه!..

ـ لقد صاروا عبيداً أسرى له، لم يتركوا شيئاً إلا وفعلوه لإرضائه، فصاروا يحضرون له المدرسين، ويغدقون عليه النقود.. ولكن كل هذا بلا فائدة، بعد أن أرغموه على سلوك طريق التشرد، من جراء تصرفاتهم الرعناء، والآن يندمون ويزرفون الدمع.. ولكن بعد فوات الآوان.

ـ سمعنا والدته تبكي وتقول له «آه يا ولدي.. هاقد غضبت عليك

من جديد» قالت هذا بعد أن رمى بصحن الشوربة فوق رأسها وهي على مائدة الطعام.

ـ كم تمنيت ألا يكون لمثل هذين الأبوين ولداً.. ولك يا سفلة يا منحطين يا حمير... أرجو المعذرة بدلاً من أن تصبحوا أمامه عبيداً أسرى، ألم يكن الأجدر بكم أن تعرفوا قيمة هذا الطفل، وأن لاتدفعوه إلى حياة التشرد والفقر والبؤس، لقد حولتم هذا الملاك شيطاناً، وها أنتم الآن تتصرفون معه كعبيد أسرى.. ماذا لو كنتم عرفتم قيمته؟..

وبعد بضعة أيام وبينما كنت على وشك الذهاب إلى فراشي للنوم لأنني كنت متعباً، جاء جيراننا القاطنين في الشقة رقم ٦ ليباركوا لنا، وهم الزوج وزوجته وحماتها.

لم يمض على حضورهم خمس دقائق حتى بدأت الحماة بالكلام فقالت:

ـ هل تعرفتم على الجيران القاطنين في الشقة رقم ١.

ـ كلا لم نتعرف عليهم حتى الآن..

ـ تعرفوا عليهم.. وسوف ترون أنكم لم تشاهدوا مثل هذه العائلة..

ـ من أي ناحية؟..

ـ كان الثلاثة يتخاطفون الكلام من أفواه بعضهم ويتكلمون في آن واحد.

ـ نحن نعرف الأب منذ ثمانية أعوام، وهو رجل يفوق الوصف.

ـ شريف، متزن، يحب العمل، يحب بيته وعائلته.

ـ لكن ما الفائدة، فإن حظه سيء ابتلاه الله بإنسانة مفترية جداً، لم تستطع أن تفهم زوجها أو تعرف قيمته.

ـ لم تتوقف عن الثرثرة حتى أجبرت زوجها المسكين على ترك بيته.. أرجو أن لا يكتب الله مثل هذه الزوجة على أحد.. لقد كانت شديدة الإلحاح عليه:

«لماذا تأخرت.. لماذا قلت كذا .. لماذا لم تقل». علماً بأن الرجل لم يتأخر مرة واحدة ولم يقل أو يفعل شيئاً.

ـ أخيراً لم يعد الرجل قادراً على تحمل تصرفات زوجته بدأ بتعاطي المشروب يومياً والذهاب إلى الخمارات ولايعود إلى البيت إلا في أواخر الليل، أوعند الفجر وبمساعدة هذا أو ذاك، لم يتوقف عن السب والشتائم.

ـ بدأت تصرفاته بتحقير زوجته وقذفها بأنواع الشتائم.. حتى أن من يسمع تلك الشتائم لابد أن يحمر وجهه خجلاً.

ـ كان ينهال عليها يومياً بالضرب، ويطلق الصراخ بأعلى صوته بمجرد دخوله إلى البيت، ويقبض على زوجته ويرميها تحت قدميه وينهال عليها ضرباً ولكماً حتى يزرق جسمها من الكدمات.

ـ والآن لو شاهدتم تلك المرأة سوف تستغربون تصرفاتها، فهي لا تناديه سوى حبيبي، زوجي العزيز، ترتدي له كل يوم أجمل الفساتين وتتزين بأحلى العقود، وتقف أمام النافذة تنتظر قدومه، تحضر له كل يوم مائدة حافلة بأشهى المأكولات والمشروبات حتى لا يسهر خارج المنزل.

ـ ولكن ما فائدة كل هذا يا سيدي بعد أن خرج الأمر من يدها،

وأرغمت هذا الرجل الملاك أن يصبح شيطاناً، ماذا يفيدها أن تكون عبداً أسيرة له بعد الآن؟..

فالرجل لايفتأ عن ضرب وتحقير زوجته كل ليلة، حتى تفقد الوعي والحركة.

ـ الشماتة بهذه السيدة أولى لأنها أرغمت زوجها على تلك التصرفات.

ـ أرجو المعذرة.. إذا قلت أنها قليلة الشرف.. واعذروني أيضاً إذا قلت أنها امرأة سافلة، لأنها لو عرفت قيمة زوجها من الأساس لما وصل إلى ما هو عليه. والآن بعد أن أصبح رجلاً عدائياً بدأت تتواضع وتصنع من شعرها مكنسة له.. واعذروني إذا قلت أنها قليلة الشرف ما دامت تستطيع أن تكون هانم وربّة منزل، فلماذا لم تتصرف كما يجب منذ البداية. واليوم تغرقه في النعيم بعد فوات الآوان.

وفي منتصف الليل وفيما كنا نودعهم بالقول المعتاد:

تصبحون على خير.. نحن بانتظاركم دوماً.. كانوا مازالوا مستمرين بسرد هذه الحكاية عند عتبة الباب.

بعد بضعة أيام، أحضرت معي إلى البيت بعض الأوراق التي لم أتمكن من إنجازها أثناء دوام العمل، ولم أكد اجلس خلف الطاولة حتى جاءت خادمة الجيران القاطنين في الشقة رقم ٥ وسألتني فيما إذا كان وقتنا يسمح باستقبال سيدها وسيدتها لأنهما يرغبان في زيارتنا؟. فقلنا لها:

ـ ليتفضلوا.

كان الرجل أشبه ما يكون ببرميل النبيذ، والمرأة كالبقرة،

وبصحبتهما ابنتهما اللعوب، التي كان الإغراء يتجلى في كل حركاتها، وقد فهمنا من حديثهم أنهم منزعجون جداً من سكان الشقة رقم ٣.

ـ معنى ذلك أنكم لم تتعرفوا عليهم؟.. الرجل نموذج غريب موظف في دائرتنا، حضر إلى الدائرة مدير جديد، وكان شاباً في منتهى الذوق واللطف، يتصرف مع الموظفين بمنتهى البساطة كأنه هو الموظف ومن يخاطبه هو المدير.. رجل أصيل وذو تربية عالية لدرجة لايمكن تصورها.. بالإضافة إلى انه يخاطب الجميع بمنتهى الاحترام، لايتوانى عن إضافة كلمة (سيدي) أو (حضرتكم) لمن يخاطبه، ولم يقم بتوجيه أي كلمة نابية لأحد، وبالمختصر أقول لم يسبق في تاريخ الدائرة أن رأت مديراً مثله.

لكن هذا الموظف الذي يسكن في الشقة رقم ٣ استغل لطف وأخلاق المدير الجديد فتمادى في تصرفاته، وأبى إلا أن يصطدم معه، غالباً ما يتأخر عن الدوام، وأحياناً يتهرب من الحضور للعمل. ورغم ذلك كان المدير يغض نظره بمنتهى اللطف، ويقول له: «أرجو أن لا تتأخر عن عملك» ولكن لافائدة من الكلام.. وأقول أن هذا الموظف الذي يسكن في الشقة رقم ٣ لايقوم بتنفيذ الأعمال التي يكلف بها. ولا يأبه للمدير.. مرة، اثنتان، ثلاثة، خمسة.. إيه.. لم يعد المدير يحتمل تصرفاته، فتحول المدير الملاك اللطيف المهذب إلى برميل بارود، تجاه ذلك الموظف فقط. والآن الويل له إذا تأخر صباحاً عن الدوام ولو لمدة خمس دقائق أو إذا انصرف مساءً قبل دقيقتين من انتهاء الدوام، فإن المدير سيغمض عينيه ويفتح فمه، ولن يترك كلمة

نابية إلا وينعته بها، لدرجة أن الكلام الذي يلفظه المدير، لو سمعته الكلاب لأصبحت مسعورة، لكن جارنا القاطن في الشقة رقم ٣ كان يتحمل كل هذا الكلام ويقول أنه مرغم على التحمل من أجل العائلة والأولاد، وهو يخاف من الجوع فيما لو طرده المدير من العمل.. لذلك بدأ بالجد والعمل، لوشاهدتموه كيف يعمل!.. إنه يقوم بعمل شخصين أو ثلاثة.. والآن ما قولكم بمثل هذا الإنسان؟.. ولك يا قليل الشرف.. حاشا الحضور.. مادمت تخاف بهذا الشكل، ومادمت تستطيع أن تعمل بمنتهى الهدوء والنظام، فلماذا لم تقم بذلك منذ البداية. وتسببت في إخراج المدير عن طوره. معذرة إذا قلت أنه سافل، الآن أصبح عبداً أسيراً للمدير.

وفي مساء أحد الأيام، ولدى توجهنا للنوم باكراً حيث تأخرنا في الليلة السابقة في السينما، وإذ بجارنا القاطن في الشقة رقم ٢ جاء لزيارتنا ليبارك لنا، كنا متلهفين للتعرف على هذه العائلة التي كانت ترغم أولادها أن يصبحوا أولاد شوارع.. لم يُحضروا أولادهم معهم ولم يمض على بداية حديثنا سوى خمس دقائق حتى قالت السيدة:

ـ هل تعرفتم على الجيران القاطنين في الشقة رقم ٥ إنهم غريبوا الأطوار حقاً..

أكمل الزوج كلام زوجته:

ـ لقد كانوا السبب في انزلاق ابنتهم المسكينة نحو طريق الرذيلة.

ـ لديهم فتاة.

ـ الحق يقال .. إنها جميلة جداً.. لو اشتركت في مسابقات الجمال..

ـ ستحتل المرتبة الأولى!..

ـ سينتخبونها ملكة.. وهي ليست جميلة فحسب..

ـ حلوة جداً.. شريفة.

ـ لا يشترون لها ثياب.. حتى ولا فستان واحد في السنة..

ـ ولا أحذية.

ـ ولايأخذونها إلى أي مكان. حتى الخدم..

ـ يلبسون أفضل منها.. وأخيراً..

ـ استمروا بالضغط على الفتاة.. ضغط.. ضغط..

ـ ضاع نصيب البنت.

ـ لم يزوجوها.. طلبها شاب محترم..

ـ لم تكن من نصيبه.. هذا كبير في السن.. والآخر مازال..

ـ شاب صغير.. جاءها شاب آخر..

ـ رفضوا زواجها منه لأنه غني.. بعد ذلك.

ـ طلب يدها شاب ممتاز.. وأيضاً.

ـ رفضوا زواجها منه لأنه فقير.. وفوق كل ذلك.

ـ لم يسمحوا لها بمغادرة المنزل، أو الذهاب إلى للسينما، أو التحدث مع صديقاتها. حتى أصبحت المسكينة كالقطة الخائفة.. وهكذا..

ـ أرغموا هذه الفتاة على سلوك طريق الرذيلة.. والآن لو شاهدتموها.

إنها كالزهرة التي يشمها الجميع تباع وتشترى لكل عابر سبيل.

ـ حتى أنها وصلت إلى معاشرة الزبائن في الكباريهات.. شاهدها بعضهم في أحد بيوت الدعارة.. والآن فإن أمها وأبيها يهتمون بها كثيراً.. «أمان الفتاة ستغضب.. لاتدعوا البنت تزعل..».

«لتذهب إلى السينما متى شاءت.. هيا اذهبي إلى السينما إذا كان لديك رغبة.. هل تريدين أن نشتري لك معطفاً يكون لونه مناسباً لموضة هذا العام».

ـ الآن عرفوا قيمة البنت.

ـ اعذروني إذا قلت أن والد هذه الفتاة حيوان، لأنه لم يعرف قيمة ابنته التي تشبه براعم الورد.. والآن أصبح عبداً أسيراً لها.. ولكن ما الفائدة. حاشا الحضور.. إنه قليل شرف.

وفي ليلة أخرى جاءنا الجيران القاطنون في الشقة رقم ٣ وهم ذلك الرجل الذي أرغم مديره المهذب أن يصبح شرساً، ترافقه زوجته. علماً بأنني كنت أود أن أستحم ذلك المساء، ولكنني تخليت عن الحمام بعد أن أرسلوا يسألوننا فيما إذا لم يكن لدينا مانع من حضورهم لزيارتنا.

وبينما كنا نشرب القهوة بدأ الرجل حديثه قائلاً:

ـ علمنا أنكم تعرفتم على الجيران القاطنين في الشقة رقم ٤، ولكنكم لم تعرفوا أي نوع من الناس هم؟.. فالرجل لديه مخزن في شارع البنوك، وهو مستورد، لديه موظف يعمل محاسباً، إنه رجل شريف، نشيط يقوم بجميع الأعمال المحاسبية، والكتابية والإدارية بمفرده.. وراتبه الشهري لا يتجاوز الستمائة ليرة.. علماً بأنك لا

تستطيع أن تجد مثله حتى لو دفعت ستة آلاف ليرة.. لأن العمل الذي يمارسه هذا الرجل يشجع على السرقة. فيستطيع أن يسرق عشرة آلاف ليرة شهرياً من هذا المحل دون أن يشعر المعلم بذلك. لكن هذا الموظف لا يجني قرشه بالحرام، فلا يتنازل عن شهامته وعفته وإخلاصه. ومع ذلك كان معلمه القاطن في الشقة رقم ٤ يسأله عن الخمسة قروش «ماذا فعلت بباقي النقود؟..» «انظر إلي فأنا أرى كل شيء وأعرف كل شيء». «هل فهمت؟ أنا لا أترك مجالاً لأحد ليأخذ قرشاً واحداً» . «انظر إلى عيني.. إنك لا تستطيع أن تذر الرماد فيهما». «لاأحد يستطيع التلاعب معي».

مثل هذا الكلام لايمكن احتماله حتى ليوم واحد، فمابالك بهذا الرجل الذي يسمع مثل هذا الكلام على مدى خمس سنوات.. ولك أنت وجدت مثل هذا الرجل الشريف، الصادق، النشيط، فلماذا لم تعرف قيمته وتقدره حق قدره.

استمر الرجل بمعاملة الموظف المسكين بتلك الطريقة حتى انزلق وبدأ بسرقة معلمه، وهو لا يكتفي الآن بخمسة آلاف ليرة شهرياً وعلى مرأى العين.. وجارنا القاطن في الشقة رقم ٤ لايفتح فمه.. لأن هذا الموظف يعرف عمله جيداً، وهو يعلم أن معلمه سيربح مائة ألف ليرة زيادة. ولو سرق الموظف عشرة آلاف ليرة. فإن صاحب العمل يخاف من طرده حيث لن يتمكن من تعويضه بإنسان آخر نشيط مثله.. وهكذا صنع من هذا الموظف الشريف للغاية لصاً رغماً عنه. بعد ذلك بدأ يقدّره ويحترمه، فما قولك بأمثال هؤلاء الناس؟.. ولك يا قليل الشرف، وأرجو المعذرة.. أنت تعلم أنه كان يجب زيادة

الراتب هذا الرجل فلماذا لم تزد راتبه قبل أن يصبح لصاً.. ألم يكن ذلك أفضل؟.. والآن يرتعد صاحب العمل خشية خوفاً بتأثر عمله فيما لو تخلى عنه هذا الموظف.. فهو يعرف جميع ألاعيب رب العمل.. لو تكلم عن تهرّبه من دفع الضريبة مثلاً فإن ذلك سيكون سبباً في تدميره. اعذروني إذا قلت أنه حيوان.. لقد عاد إليه صوابه الآن ولكن سبق السيف العذل، وخرج الأمر من يده، فما فائدة ذلك؟..

كان آخر من تعرفت عليه من الجيران سكان الشقة رقم ١. ففي مساء أحد الأيام كنت مريضاً، فأرسلوا من يسألنا إذا كان الوقت مناسباً ليقوموا بزيارتنا.

ـ ليتفضلوا..

كان ما يهم جيراننا الزائرين، الجيران القاطنين في الشقة رقم ٦ فقال الرجل:

ـ هناك شيء غريب في هذه العائلة..

أضافت السيدة:

ـ الأمر ليس غريباً فقط، ليس هناك مثيل لهذه العائلة في العالم.. فالسيدة ربة منزل، من الطراز الأول، بيتها كالورد، ماهرة في كل شيء. في إعداد الطعام، والحلويات، والخياطة، لديها عشرة أصابع بعشر مهارات.

ـ أما عن ثقافتها، فقد أنهت الثانوية، ولكنها تضع خريجي الجامعة في جيبها، فهي تعرف كل شيء، أما حديثها..

ـ تقرأ دائماً..

ـ وجميلة جداً.

ـ أما الزوج فأحمق، غيور لدرجة لاتوصف، وياليته اكتفى بالغيرة. كانت المرأة تحب زوجها، ولاتنظر إلى أحد سواه، ولكن الزوج هيهات له أن يفهم ذلك، ولا أدري ماذا كانت تحب بذلك الرجل النجس!..

ـ كان يفتعل المشاجرات معها بدون سبب، حتى وهم في الشارع، يقول لها «لماذا تنظرين إلى ذلك الرجل» تجيبه وهي تبكي «ليبليني الله بالعمى إذا كنت قد نظرت لأحد..». وفي البيت يقول لها لماذا تتركين الستارة مفتوحة. إنك تنظرين إلى الفتى الساكن في الشقة المقابلة أليس كذلك؟..، فتتوسل إليه وتبكي ولكن من دون فائدة. يعود في المساء إلى البيت فيقول لها «من كان في زيارتك هذا اليوم»، «كم زبوناً كان عندك؟..».

ـ وأخيراً لم تحتمل السيدة تصرفات زوجها هذه. فقالت له على ما يبدو «مادام هذا رأيك بي فسوف ترى..».

ـ وهكذا كان الزوج سبباً في إخراج تلك السيدة المسكينة عن طورها.. والآن أصبح منزلها يعج بالزبائن، يسرحون ويمرحون، والزوج يقوم بخدمتهم ولا يعترض على تصرفات زوجته، أصبح يحبها لدرجة الجنون.. لا تؤاخذوني إذا قلت له يا قليل الشرف، مادمت لا تستطيع فراق هذه السيدة، ومادمت تحبها بهذا الشكل، لماذا لم تعرف قيمتها عندما كانت متعلقة بك، وكانت تحبك؟..

إنك الآن عبد أسير تقول لها »أمرك ياروحي، يا حياتي..« وأنت مستعد لأن تموت إذا قالت لك »مت«.. عفواً إذا قلت عنه أن قوّاد.. ولك ماذا لو عرفت قيمة هذه السيدة من قبل؟..

وهكذا تمت زيارات جميع جيران منزلنا، وجاء دورنا لنقوم برد هذه الزيارات.

وفي صباح أحد الأيام وبينما كنت أهم بالخروج من العمارة، حياني أحد الجيران وكان على درج الطابق الأرضي وقال لي:

ـ صباح الخير يا سيدي.

ـ صباح الخير.

ـ نحن السكان الجدد انتقلنا إلى هذا البناء وسكنا في الشقة رقم ٨.

معنى ذلك أن الشقة رقم ٨ قد شُغلت أيضاً.. خرجنا سوية إلى الشارع وذهبنا إلى موقف الأوتوبيس، كان الرجل ثرثاراً فقال لي:

ـ هناك شخص يسكن أمامنا في الشقة رقم ٧!..

وكنت أنا من يسكن الشقة رقم ٧. ونظراً للفظه كلمة شخص بشيء من الاستخفاف، لم أشأ أن أقول أنا من يسكن تلك الشقة.. فأضاف قائلاً:

ـ في هذه الدنيا أشخاص كثر يتصرفون بطريقة غريبة، فهذا الشخص كان يسكن في شقة آجارها الشهري ٣٠٠ ليرة قبل أن ينتقل إلى هنا. كانت تلك الشقة مؤلفة من ستة غرف وصالة، وفيها تدفئة وأرضيتها من خشب (الباركير) كما أن بناءها مزود بمصعد. طبعاً مثل هذه الشقة يجب أن يكون آجارها أكثر من ٣٠٠ ليرة جاء إليه صاحب الشقة وقال له، يجب أن يكون لديك بعض الانصاف، أريد رفع الإيجار ليصبح ٤٠٠ ليرة شهرياً، لكن ذلك الشخص رفض أن يدفع قرشاً زيادة. بناء عليه قام صاحب الشقة برفع دعوى إخلاء

ضده بحجة أن ابنه سوف يسكن الشقة. عند ذلك جاء ذلك الشخص وارتمى على أقدام صاحب الشقة وبدأ يتوسل ويقول: أرجوك لا تخرجني من الشقة فأنا على استعداد أن أدفع لك ٨٠٠ ليرة شهرياً بدلاً من ٤٠٠ ليرة. ردَ عليه صاحب الشقة غاضباً «إنك لم ترض بدفع مبلغ ٤٠٠ ليرة في حينه والآن تريد دفع ٨٠٠ ليرة لكن والله إذا دفعت ثمانية آلاف ليرة فلن أقبل». هل رأيت مثل الشخص القاطن في الشقة رقم ٧؟.. إنه يدفع الآن مبلغ ٩٠٠ ليرة في شقة مؤلفة من أربع غرف.. ولك هل يمكن دفع مبلغ ٩٠٠ ليرة لإيجار شقة تحتوي أربع غرف؟.. لقد كان السبب في إيذاء جميع المستأجرين والآن يريد صاحب البناء أن يرفع آجار الشقق ليصبح ٩٠٠ ليرة. وأنذرنا بأنه لن يقبل بأقل من ذلك، فما رأيك وماذا يمكن أن تقول عن أمثال هؤلاء الأشخاص؟.. مادام قد توسل ورضي بدفع مبلغ ٨٠٠ ليرة.. لماذا لم يدفع له ٤٠٠ ليرة عندما طلب منه رفع الإيجار؟.. قلت له:

ـ هاقد جاءت الحافلة، وكانت قادمة بعكس الاتجاه الذي أنوي الذهاب إليه، ولكنني صعدت إليها.

سوف لن أنسى هذا الموقف من ساكن الشقة رقم ٨، وسيرى كيف سأتمكن من معرفة أي نوع من الناس هو؟ على كل حال ونظراً لهذه الأسباب.. لم أعد أرغب في زيارة أحد من الجيران، كما لم أعد أرغب بأن يزورني أي واحد منهم مستقبلاً.

* * *

٦ ـ نقاش طبيعي

هل ترون هذين الشخصين اللذين يجلسان أمامنا، يتكلمان، وكأنهما يتشاجران؟.. نعم..أغلب الظن أن سوء تفاهم كبير حدث بينهما، وهذا واضح من حركات الأيدي والغضب الذي يسيطر عليهما.. أستطيع أن أخبركم عن سبب سوء التفاهم إذا كنتم ترغبون في ذلك!..

أحد هذين الشخصين الذي يضع نظارة سميكة على عينيه، كان يتحدث عن (مختار) أحد كتابنا المعروفين ويقول عنه أنه رجل جاهل، لادين له، ولا شرف، ولا تربية. أما الشخص الثاني الجالس معه والذي يشبه أنفه أنف التيس، كان يمتدح الكاتب المعروف (مختار) ويقول عنه أنه كاتب شريف ومتعلم، إذا وعد أوفى، ويقول عن الكاتب (باهر) أنه إنسان جاهل، منافق بوجهين، وسافل إلى ابعد الحدود، وإنسان مدعي العلم أيضاً.. أما ما يقوله الرجل الذي يضع نظارة على عينيه فيمتدح الكاتب (باهر) ويشهد بعلمه واستقامته، وجرأته وتمادى في مدحه حتى أوصله إلى السماء.

يعني أن هذين الشخصين اللذين تشاهدونهما أمامكم، وأبرز صفاتهم أن أحدهم يضع نظارة سميكة على عينيه، والثاني له أنف كأنف التيس، قد دخلا في مناقشة حامية حول الكاتبين (مختار) و (باهر) حتى كادت أن تتحول هذه المناقشة إلى شجار.

إذا سمحتم لي سأحدثكم عن السبب الحقيقي للشجار:

الكاتب المعروف مختار، يكتب مقالات سياسية في جريدة (الطريق الصحيح) تحت عنوان «الصباح .. الصباح» أما الكاتب باهر فيكتب في جريدة (آخر خبر) مقالات سياسية تحت عنوان «ماذا نقول لهذا».

أحد هذين الشخصين الجالسين أمامنا ويتناقشان (الذي أنفه كأنف التيس) كان من قراء جريدة (الطريق الصحيح) منذ عدة سنوات، هذه الجريدة تنشر أخبار الحظ والأبراج في زاوية تحت عنوان «دع كل شيء واقرأ برجك». فالجريدة تنشر هذه الزاوية بشكل مشوقٍّ، يفوق كل ما ينشر في صحف أخرى من أمثال هذه الزاوية.

أما الرجل (ذو النظارة السميكة) فلا قدرة له على شراء أكثر من جريدة واحدة في اليوم، وقد أدمن على شراء جريدة (آخر خبر) منذ عدة سنوات لأن الكلمات المتقاطعة التي تنشرها هذه الجريدة اسهل من الكلمات المتقاطعة في الجرائد الأخرى. كما أن هذه الجريدة من مؤيدي فريق (فنار بهجة) منذ نشأته والرجل ذو النظارات يؤيد فريق (فنار بهجة) منذ طفولته لأن المرحوم عمه كان من مؤيدي هذا الفريق.

وفي أحد الأيام نضب النبع الذي يغذي إلهام الكاتب المعروف مختار، لأنه أمضى ليلته السابقة في تعاطي المشروبات مع أحد أصدقائه حتى الصباح، تعب كثيراً ولم يجد أي فكرة ليكتب عنها مقاله اليومي. وكان من عادته أن يلجأ لاستغلال أسلوبه الجزل والممتع عندما يخونه الإلهام وينجح في الوصول إلى هدفه، وبفضل ذكائه وحذاقته، كان يختار أي موضوع ويشرحه بطريقة فلسفية مضيفاً

بعض أبيات الشعر، فكتب مقالاً بعنوان (فضائل الفاصوليا اليابسة، ورذائل العدس) بدأ مقاله على الشكل التالي:

«لقد نهل العالم الغربي المعاصر من فيض ينابيع الشرق، ونقل عن العالم الكبير إبن المرطباني ماجاء في كتابه «فضائل الفاصوليا اليابسة، ورذائل العدس». وتابع المقال بتقديم المعلومات الدقيقة والعميقة عن الفاصولياء والعدس وفق أسلوب المعلم الممتع...وحقيقة الأمر ليس هناك عالماً اسمه ابن المرطباني، ولا كتاباً فيه فضائل الفاصولياء اليابسة، ورذائل العدس، ولكن بالرغم من عدم وجود مثل هذا الكاتب وهذا الكتاب، فقد تمكن كاتبنا المعروف مختار من إسالة لعاب قرائه من لذة ذلك المقال الجميل الذي كتبه في ذلك اليوم.

في الوقت الذي نشرت فيه هذه المقالة في جريدة الطريق الصحيح تعرض الكاتب باهر الذي يكتب زاوية «ماذا نقول لهذا؟..» في جريدة آخر خبر. إلى انسداد في أفكاره، وتوقف قلمه عن الكتابة نتيجة للمائدة التي أقامها أحد المعجبين على شرفه، والتي سببت له الأرق في تلك الليلة حتى الفجر. وبينما كان يقلّب جريدة الطريق الصحيح بحثاً عن فكرة يمكن أن تكون موضوعاً لمقاله، لفت نظره المقال الذي كتبه مختار في ذلك اليوم.. حاول قراءة بعض الأسطر من هذه المقالة، كونه متضايقاً، أو لأنه لم يفهم ما قرأه، فكر فيما إذا دخل في سجال مع مختار هذا فماذا يمكن أن يحصل!.. فهو لم يدخل في سجال مع أحد منذ أكثر من أسبوعين، علماً بأنه من أهم الصحفيين المتفوقين في هذا المجال، فهو يملك قلم محارب، ومعظم قرائه معجبين به، وفي نفس الوقت فهو يكره مختار من زمان، لذلك

KMH

أراد انتهاز الفرصة، لينقضّ على الكاتب مختار.فأخذ قلمه وبدأ بالكتابة.

«قرأت المقال الذي كتبه محررنا الكبير المحترم وزميلنا العزيز مختار في جريدة الطريق الصحيح والذي تحدث في إحدى فقراته عن نوع من القواقع البحرية اسمه (استيريديا) فقال أن هذه المخلوقات البحرية تعيش تحت إمرة الأنثى.. لقد وقع هذا الإنسان في الخطأ عندما كتب ذلك... كما كتب في المقال أن الذكور من هذه المخلوقات تعيش مع بعضها في أسراب يتراوح عددها بين أربعين أو خمسين. والحقيقة أن ما ورد في مقال الأستاذ مدعاة للسخرية، ليس من قبلنا نحن البشر فقط بل حتى من قبل الاستيريديا وجميع الحيوانات البحرية التي تعيش ضمن قواقع!.. فمن المعلوم أن يعيش في مواقع الاستيريديا حيوان من جنس واحد.. ولافرق بين الذكور والإناث، فإنثى هذا الحيوان قد تكون بالأصل ذكراً وقد تتحول إلى أنثى بعد ذلك. كما أن أنثى هذه القواقع تستطيع تلقيح نفسها كأنها ذكر ثم تعود بعد ذلك إلى أنوثتها.. مثل هذه المعلومات البسيطة يجهلها كاتبنا المحترم مختار وهو الذي لا يتوقف عن إعطاء الدروس لقرائه في الحريات وحقوق الإنسان فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الكاتب مقنعاً لقرائه؟.. ونحن لن نتكلم وسوف نترك تقدير هذا الأمر إلى قرائنا الأعزاء»..

عندما رأى قراء جريدة آخر خبر هذا المقال. أعطوا الحق لانتقادات السيد باهر، لأنهم لم يقرأوا المقال الذي كتبه الصحفي مختار في جريدة الطريق الصحيح في اليوم السابق.

جن جنون السيد مختار عندما قرأ هذا المقال، ومسك قلمه وبدأ

بكتابة الرد بشكل هجومي لا مثيل له من قبل، حتى أنه لم يأت على ذكر القواقع. وبدأ بصب جام غضبه على باهر وكتب مقالاً عنوانه:

«لاتحجبوا نور الشمس» جاء فيه:

«لقد جاء في قصاصة الورق التي اسمها آخر خبر» وفي إحدى مسودات أحد محرريها وفي المقال الذي نشر أمس والذي كان أشبه ما يكون بالهذيان والذي جاء فيه:

«لقد مات كريستوف كولومبوس عام ١٨٤٨ أثناء ثورة بروسيا، عندما كان يواجه جيش شكسبير، حيث جاء في أحد عباراته: «أيتها الحرية، كم أنت حلوة» وهذا يعني أن الحرية هي غذاء للعقل تماماً كالخبز الذي هو غذاء للمعدة، والموسيقى التي هي غذاء للروح».

«ماذا عساي أن أصحح في هذا المقال فكله أخطاء.. وأنا أرى أن لافائدة من الكلام أبداً مع محرر لا يتمتع بشرف الكلمة والفكر.. أمثال هؤلاء قد تعودوا على لحس الصحون، وهم يحاولون الآن النيل من رجال هذا العصر.. وأنا أقول لهم بأنكم لا تستطيعون أن تحجبوا نور الشمس أبداً، وسيبقى نور الحقيقة ساطعاً دوماً».

دُهش القراء الذين قرأوا مقالة الصحفي مختار من ضآلة معلومات وجهل الصحفي باهر الذي لم يسكت على هذه الإهانة فكتب في اليوم الثاني مقالاً في زاوية «ماذا يقال لهذا..» وتحت عنوان:

«رد لا حياء فيه»

«هذا المدعي السافل مختار الكاتب يكتب في جريدة الطريق الصحيح، يحاول طمس الحقائق، عندما فشل في الدخول في نقاش

علمي. كذلك يحاول افتعال خصومة شخصية، علماً بأنه لا يستطيع التأثير على قدمي لأن كل مايقوله هو محض افتراء لا أصل ولا فصل له ولايمكن تصديقه أبداً، نحن نعرفه تماماً، لقد سرق الغسالة من بيت شاعرنا الكبير المرحوم سليمان ووضعها تحت معطفه، وأقول لمن لا يصدقون كلامنا هذا، أن يسألوا المرحوم نظمي بك الرجل الشريف الذي خدم مدة طويلة مديراً للشرطة ليعرفوا الحقيقة. كما قام أيضاً بسرقة رواية «نافورة الجبل» من الكاتب الفرنسي جان بول بيير، وأكتفي الآن بسرد هاتين الحادثتين ولكنني أحذره للمرة الأخيرة بأني سأنشر غسيله القذر إذا استمر بنشر افتراءاته وقد أضطرُّ للجوء إلى القضاء لنتحاسب معه هناك!..»

بدأ قرّاء جريدة آخر خبر يكرهون الصحفي مختار بعد قراءتهم هذا المقال. ونعتوه بالإنسان القذر.

وفي صباح اليوم الثاني نشرت جريدة الطريق الصحيح وفي زاوية (الصباح. الصباح) التي يكتبها الصحفي مختار مقالاً تحت عنوان:

«ماكينة الكذب تقذف وحلاً..».

تلك الجريدة التي اسمها آخر خبر والتي نشرت مقالاً في الزاوية اسمها:

«ماذا يمكن أن يقال لهذا..» وبقلم محررها المأجور باهر الذي يعيش من وراء المصاريف المستورة. والذي يسلك طريق الديماغوجية عندما أيقن أنه لا يستطيع أن يرقى إلى مستوى النقاش العلمي. إن هذا الشخص لايعرف اللغة الفرنسية فكيف بإمكانه القيام بالترجمة من اللغة الفرنسية. وكم ستضيع المعاني وتتلخبط الأمور من جراء

ذلك. لقد سبق له أن قام بترجمة جملة افرنسية بشكل سيء مما أضاع المعنى الأساسي للجملة الأصلية، علماً بأن طالباً في الإعدادي يستطيع ترجمتها بشكل أفضل، وكنت أستطيع أن أنقل لكم تلك الترجمة لولا خشيتي من إطالة الحديث، لذلك صرفت النظر عن ذلك. وكان الأجدى بهذا الجاهل أن يسأل بعض أصدقاء العائلة ليشرح له هذه الجملة.. نحن لا نريد أن نحوّل النقاش العلمي إلى خصومة شخصية رغم معرفتنا بأن هذا الصحفي القاطع الطريق هو من مدينة أذربيجان ويمتلك والده دكان بقالية. وقد أنزلت البلدية أقصى العقوبات بحقه لأنه ضبط وهو يبيع سمناً مغشوشاً في دكانه... كما أن هذا الصحفي المحتال سافر في العام الماضي إلى أوروبا وجلب معه في طريق عودته ماكينة حلاقة كهربائية، ولم يسدد عنها الرسوم الجمركية، كما قام بتهريب بعض الأغراض الأخرى في حقيبة.. وهناك أشياء أخرى كثيرة لكن شرف المهند لا يسمح لي بالكلام أكثر من ذلك..».

أوضح الصحفي مختار بصورة لالبس فيها لقراء جريدة الطريق الصحيح حقيقة الصحفي باهر وكم هو إنسان سيء، بالرغم من أن الصحفي باهر ليس من سكان مدينة أذربيجان إلا أن قراء جريدة الطريق الصحيح من مواطني أذربيجان تنادوا للتنصل من هذا الصحفي المدعو باهر ونزع نسبة أذربيجان عنه. بعد ذلك انبرى الصحفي باهر للرد وقال:

«أريد أن ألفت نظر الحكومة إلى أن هناك أحد اليساريين بدأ يعوي».

«انتبهوا إلى الخطر الداهم... في الوقت الذي تقوم فيه بلادنا بالتصدي للتيارات الضارة، تستمر الأقلام اليسارية التي تتستر وراء قوالب وأشكال مختلفة بتحريض الشعب، وتسميم أفكاره.. هذه الأساليب الملعونة سوف تقوض القيم الأخلاقية للبلاد لتخلو الساحة لألاعيب هذه الفئات، وإن أسوأ هؤلاء، هو صاحب القلم القذر الذي يكتب في قصاصة الورق التي أسمها الطريق الصحيح، والذي قام بالتهجم عليّ، ولكن رأسه اصطدم هذه المرة في صخرة كأداء، وأصبح لزاماً علينا كشف حقيقته».

استمرت المقالات في أخذ هذا المنحى من الهجوم. حتى لفت نظر المدعي العام المقالات التي يكتبها الصحفي مختار.

بعد ذلك كتب مختار مقالاً تحت عنوان (هشت) جواباً على تلك المقال الطويل وقال أنه لن يتنازل بالرد ثانية بعد الآن.

ثم قام الصحفي باهر بالرد على هذا المقال بمقال عنوانه (هيا انقلع) وكان هذا آخر رد.

هذا هو السبب الذي من أجله دخل هذان الشخصان اللذان يجلسان أمامنا، وأحدهم ذو أنف كأنف التيس، والآخر ذو نظارات، دخلا في مناقشة حامية من أجل هذين الكاتبين، لأن أحدهما لا يقرأ سوى جريدة الطريق الصحيح والثاني لا يقرأ سوى جريدة آخر خبر. لذلك فلم يتمكنا من التفاهم مع بعضهما.

وأنا أعرف الوضع جيداً لأنني قرأت المقالات والسجالات التي كتبت ودارت بين الكاتبين، كما أعرف شيئاً آخر، وهو أنه في الوقت الذي كان فيه هذان الشخصان يتشاجران من حدة النقاش بسبب

هذين الصحفيين المعروفين كان الصحفيان يجلسان بجانب بعضهما على مائدة رئيس الوزراء ويتبادلان الضحكات والمجاملات لأنهم أناس يفهمون معنى حرية الفكر، فهما يحترمان بعضهما حتى وإن اختلفت آراؤهما، فهما صحفيان متمدنان.

* * *

٧ ـ معطف النائب

جاء الشتاء مبكراً في تلك السنة، وبدأ الثلج يتساقط ابتداء من منتصف شهر كانون الأول.. أنا لا أحب الشتاء. ولا أحب الصيف أيضاً. ثم أي صيف هذا الذي سأحبه إذا لم أتمكن خلاله من السباحة في البحر، أو من شرب زجاجة بيرة باردة؟.. أنا أتجمد في برد الشتاء وأتلظى من حر الصيف، لذلك لا أحب الشتاء ولا الصيف. هل يمكن أن أحب الربيع أكثر؟.. لا.. فإذا لم أستمتع به ولم أعش حياتي على ما يرام فما عساي أن أحب في مثل هذا الربيع؟..

كان حظي جيداً في الشتاء الماضي، فقد بعت الموسوعة التي اشتريتها العام الذي قبله بمبلغ ٧٠٠ ليرة لأحد باعة الكتب القديمة. بعتها بمبلغ ٢٥٠ ليرة وشعرت بأن هذا المبلغ قد نزل علي دون أي جهد!..

كانت أجمل أمنياتي أن ألبس معطفاً في ذلك الشتاء، ولعلكم لا تصدقون أنني أمضيت كل مواسم الشتاء الماضية في حياتي بدون معطف، أمضيها وأنا مرتدياً ما يقيني من المطر فقط.

كنت أرغب في شراء معطف جميل سميك، له أوبار، من النوع الذي يلبسه الأغنياء، معطف يدخل الدفء إلى جسمي.. أما لونه فيجب أن يكون حتماً بلون وبر الجمل، ولعل سبب اختياري لهذا اللون هو أنني ربما تأثرت وأنا في سن الطفولة بأحد الأغنياء الذي كان يرتدي معطفاً بلون وبر الجمل.. وزاد إصراري أيضاً على أن

يكون معطفاً سميكاً، جميلاً، وأنيقاً. معطفاً يستطيع أن يخفي كل مظاهر الحرمان والفقر عن الشخص الذي سيرتديه وهو أنا. ليكن على ظهرك معطفاً سميكاً حتى لو كنت ترتدي بنطلوناً ممزقاً أو مرقعاً..

أريد معطفاً إذا لبسته أستطيع من خلاله تحدي الثلج وهو يتساقط بغزارة، وأزرع الشوارع جيئة وذهاباً بدون أن أبالي.. معطفاً يذوب عليه الثلج المتساقط بمجرد ملامسة وبره الناعم!.

لم أخبر أحداً في البيت أنني بعت الموسوعة بمبلغ ٢٥٠ ليرة، لأنهم إذا علموا أنه في جيبي مبلغ ٢٥٠ ليرة، فسيجدون لي مائتين وخمسين ألف مبرر لصرفها ورغم أنني لا أخفي شيئاً عن أهلي، ولكن في سبيل المعطف بلون وبر الجمل، والذي سيطر على جميع أحلامي أخفيت عنهم خبر النقود.

سرت في شوارع (بي أوغلو) عدة مرات جيئة وذهاباً وأنا أقرأ الأسماء على لوحات الخياطين. وأنت عندما يكون في جيبك نقود يمكن أن لايعجبك أي من هذه الأسماء المكتوبة على اللوحات. وأخيراً دخلت إلى معمل أحد الخياطين الذي أعجبني اسمه نسبياً. كان خياطاً يونانياً محله في الطابق الثاني من أحد الخانات.. درج أمامي أقمشة المعاطف، فاخترت القماش الذي أحببته، وضع قطعة القماش على طول جسمي وشاهدت نفسي في المرآة. كان القماش لائقاً ومناسباً لأقصى حد.

- كم سيكلفني المعطف؟..

- تسعمائة ليرة من اجل خاطرك.

أطبقت فمي حيث لامجال لمناقشة هذا السعر، قلت له وأنا أغادر محله.

ـ سأعود إليك فيما بعد..

وبينما كنت أسير في الطريق صادفت أحد أصدقائي فقال لي:

ـ لماذا تسير هكذا ورأسك مكشوف ومعرّض للهواء البارد؟.. قلت له:

ـ كنت أقرأ لوحات الخياطين.

صديقي هذا يعرف خياطاً فأخذني إليه. وهناك اتضح لي من مظهر ورشة ذلك الخياط أنه ليس باستطاعته خياطة قميص. اخترت القماش، فقال لي صديقي:

ـ موضة هذا القماش قديمة جداً.

يمكن أن تكون موضة القماش قديمة، ولكن حلمي هو في هذا القماش الذي مضت موضته.. طلب الخياط مبلغ ٨٠٠ ليرة لأني جئت إليه مع أحد زبائنه!..

زرت جميع الخياطين لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. فهمت عندها أنني لن أستطيع الحصول على معطف تفصيل بمبلغ ٢٥٠ ليرة. توجهت إلى بائعي الألبسة الجاهزة، كان سعر المعطف السميك بلون وبر الجمل لايقل عن ٦٠٠ ليرة. تركت (بي أوغلو) وذهبت إلى (السيرك جي) عسى أن أجد المعطف الذي أرغبه بأقل من هذا السعر. أخيراً وجدت المعطف الذي أرغبه معروضاً في أحد المحلات بمبلغ ٥٠٠ ليرة راودتني فكرة مفادها أن أمضي هذا الشتاء أيضاً بدون معطف لكن أحد أصدقائي نصحني قائلاً:

ـ لماذا لاتذهب إلى سوق الألبسة المستعملة؟..

اعتاد صديقي على شراء ملابسه من هذا السوق، ثم أضاف قائلاً:

ـ ستدهش كثيراً للألبسة التي سوف تجدها في ذلك السوق، فمثلاً قد تجد طقماً كان لأحد الأغنياء ولم يرتديه أكثر من يومين، باعه لأن ياقته اتسخت من الطعام، وهو لايريد أن يتعب نفسه ويرسله إلى التنظيف. وقد تجد معطفاً أوصى عليه صاحبه لأحد الخياطين، وبعد الانتهاء من الخياطة أبدل رأيه، أو لم يعد يعجبه فباعه من دون أن يلبسه، كما أن البعض يفصل معطفاً عند الخياط ولا يعود إليه لاستلامه فيضطر الخياط لبيع ذلك المعطف الجديد إلى بائع الألبسة المستعملة.. هناك ألبسة مستعملة أميركية الصنع أيضاً.. وبالإضافة إلى الألبسة الأميركية التي تردنا من أميركا، هناك ألبسة يبيعها الأميركان القاطنون هنا.. كل هذه الأنواع تجدها في سوق الألبسة المستعملة.

ذهبنا إلى سوق الألبسة المستعملة فوجدت أن كل ما قاله صديقي صحيحاً. وجدت المعطف الذي أبحث عنه تماماً وبره طري، سميك، بلون وبر الجمل، وسعره مائتين وخمسون ليرة، عيب واحد ظهر في المعطف هو أن قياسه لم يكن مناسباً لمقاسي، يمكن أن يدخل في هذا المعطف شخصين أو ثلاثة مثلي. لبست المعطف وعندما حاولت جمع طرفيه، وصلت أطراف أزراره إلى ظهري، وأصبح المعطف مكنسة للأرض، أما يداي فلم تصلا حتى منتصف الأكمام، وكأنهما مقطوعتان.. ولم يظهر من جسمي سوى رأسي فقط.

مسكني بائع الألبسة من يدي وقربني من المرآة، ثم رتب ياقة المعطف وقال لي:

ـ انظر يا سيدي: كيف ترى قياسه، إنه على مقاسك بالضبط، ولو فصلته عند الخياط خصيصاً لما جاء بهذه الروعة والجمال!..

كان الرجل يتحدث بدون توقف..

ـ إنه جميل عليك كثيراً لرشاقة جسمك.. ماشاء الله.. استدر قليلاً وانظر إلى الظهر.. ممتاز جداً.. انظر إلى الخصر أيضاً كم هو مناسب.. هذا غير معقول كأنه فُصِّل خصيصاً لك.. الله الله.. كيف تجد الياقة؟.. إنه جميل جداً، ولكن ماشاء الله فأنت تملك جسماً حلوا!..

لم أعد أعرف ماذا أقول له بعد أن استدرت عدة مرات أمام المرآة وهو يمتدح جسمي تارة والمعطف تارة أخرى، وبعد فترة من الصمت تجرأت وقلت له:

ـ إن قياسه كبير بعض الشيء.. أليس كذلك؟.

فقال لي البائع:

ـ هذا أفضل ياسيدي. فهو يعطيك مظهر الثري.. يجب أن يكون المعطف فضفاضاً بعض الشيء لكي يعطي فخامة أكثر.

معه حق فيما يقوله، ولكن هذا المعطف الذي سيعطيني مظهر الثري، فضفاض أكثر من اللازم. لدرجة خشيتي أن يسقط عن جسمي وأنا أسير في الطريق وبدون أن أشعر قلت له:

ـ لكنه فضفاض أكثر من اللازم.

ـ الآن الموضة هكذا.. ولكن إذا كنت ترغب، وهذا عائد لك فيمكن أن نرسله إلى الخياط ليقوم بإصلاحه حسب رغبتك.

انبرى صديقي فأيد ما قاله البائع وقال:

ـ خسارة.. أنا لا أرى ما يدعو للعبث في هذا المعطف الجميل، أنه على مقاسك تماماً.

قلت له معك حق، ولكن شوارعنا ملأى بالوحل، ماذا لو قصرناه أصبعاً أو اصبعين.. فقال البائع:

ـ على الرحب والسعة، سأرسله الآن إلى الخياط لكي يقصره.

لم تطاوعني نفسي لتقصير هذا المعطف الجميل فقلت للبائع:

ـ لاداعي لتقصيره. ويكفي ثنيه إلى الداخل قليلاً..

بدأت المجادلة على السعر: فقال البائع:

ـ لاأستطيع حسم قرش واحد من قيمته، وإذا كنتم تؤمنون بالله يجب أن تصدقوني أن رأسمال هذا المعطف هو مائتين وخمسين ليرة، ولكن لأن صديقك زبون لدينا، رضيت أن أبيعك إياه بدون أي ربح، ولو حضرت لوحدك لتشتريه كنت سأطلب منك مبلغ خمسمائة ليرة.. لأن المعطف جديد كما ترى...وإذا ذهبت إلى الخياط فلن تستطيع الحصول عليه بأقل من ألف ليرة.. ثم أن هذا القماش غير موجود الآن في الأسواق.. القماش متين كالحديد.. وأتمنى لك عمراً مديداً لتلبس هذا المعطف أطول مدة ممكنة.. لذلك أرجو أن لا تجادلني في السعر، فأنا لا أستطيع أن أخصم من ثمنه قرشاً واحداً. ثم أن أجرة خياطة هذا المعطف لا تقل عن خمسمائة ليرة. انظر إليه إنه جديد جداً.. أقسم لك بأنه لم يُلبس لمدة أكثر من أسبوع.

حاولت مرة أخرى تخفيض السعر ولو عشر ليرات لكن البائع رفض وقال لي:

ـ انظر يا سيدي... خذ هذا المعطف وإلبسه طوال فصل الشتاء، ثم

تعال في الصيف و ارجعه لي فسأشتريه منك بمائتين وخمسين ليرة... وأنا أعدك بذلك أمام صديقك!... تعال في نيسان، أو في أيار وخذ المائتين والخمسين التي دفعتها!...

ـ هل صحيح ما تقوله؟...

ـ والله، بالله، سآخذه منك... وإذا كنت ترغب فأنا مستعد لأن أكتب لك سنداً، لأنني سأبيعه بخمسمائة ليرة على أقل تقدير، وبما أنني أحببتك فقد رضيت أن أبيعه لك بمائتين وخمسين ليرة.

دفعت المائتين والخمسين ليرة، ولبست المعطف، في الحقيقة لقد ناسبني المعطف تماماً. ولكنني لم أستطع أن أناسبه بشكل من الأشكال. كنت أسير في الشارع وأنا أتفرج على قوامي من خلال واجهات المحلات الزجاجية... حقاً إن مظهري كان يوحي بالثراء والفخامة أيضاً...

كل من شاهدني من معارفي قال لي:

ـ أوو... مبروك.... ملبوس الهنا.... تبدو وكأنك نائب!...

لم يعجبني هذا الكلام، لأن كل الناس يشترون سنوياً طقمين أو ثلاثة ولا أحد يكترث بهم!...

فما بال هؤلاء الناس يحسدونني على معطف مستعمل اشتريته بعد بلوغي الأربعين... الحقيقة أنهم لم يعتادوا على رؤيتي وأنا أرتدي ملابس مستعملة. وأصابتهم الدهشة عندما شاهدوني أرتدي معطفاً يبدو جديداً نسبياً...

أحد الحيوانات لم يخجل وقال لي:

ـ لقد تبدل مظهرك الخارجي، أما من الداخل لم يتغير فيك شيء...

كل معارفي بدأوا يسخرون مني، ومن المعطف الذي ألبسه، ويقولون: «أوو إنك تلبس معطف نائب... فهل تنوي الدخول في البرلمان؟».

كان ذلك اليوم الأول لإرتدائي المعطف... وفي المساء وبعد أن ركبت الباخرة، بدأت أفتش عن علبتي السكائر اللتين اشتريتهما من دكان على رصيف الميناء قبل صعودي إلى الباخرة. معنى ذلك أنهم سقطوا مني دون أن أشعر....

جاء مفتش التذاكر فتشت فلم أجد التذاكر أيضاً.. يا ترى في أي جيب وضعتها؟.. فتشت جميع جيوبي بدقة فلم أجد شيئاً. فاضطررت إلى شراء تذكرة جديدة بسعر مضاعف..

وعندما غادرت الباخرة مددت يدي إلى جيبي فلم أجد التذكرة الجديدة أيضاً. كدت أفقد عقلي.. معنى ذلك أنني رميت التذكرة التي اشتريتها بسعر مضاعف بدون أن أعلم، اشتريت علبتين من الدخان وعلبة كبريت وركبت الأوتوبيس. كما اشتريت تذكرة. جاء المفتش، لم أجد التذكرة أيضاً.. فتشت في كل مكان، حتى أنني قلبت الجيوب ونظرت إلى الأرض فلم أجد شيئاً.. أن اشتري بطاقة بسعر مضاعف ليست مشكلة، ولكن ما يدعو للخجل هو أنني كذبت وقلت للمفتش «لدي تذكرة».

وصلت إلى البيت، فأعجبت زوجتي كثيراً بالمعطف وقالت لي:

ـ إنه لا يناسبك أبداً.. ولكنه مقبول لأن حجمه كبير، وهو يكفيني

لأن أعمل منه معطفاً لي ومعطفاً لإبني.

ـ وأنا ماذا ألبس؟..

ـ تلبس ما يبقى منه فإنه يكفيك ويزيد.

تضايقت كثيراً.. فتشت عن السكاير، لم أجدها.. ناديت زوجتي وقلت لها:

ـ ناوليني علبة السكائر من جيبي..

ـ لايوجد في جيبك علبة سكائر.. أو غيرها.

يا لهذا المعطف، فقد جلب لي النحس. فكل ما أضعه فيه لا أجده.. حتى أنني أضعت مفتاح البيت ذات مرة، وبقيت أنا والعائلة خارج المنزل، إلى أن جاء صانع الأقفال وفتح لنا الباب.

وحدث ذات مرة أن ذهبت مع زوجتي، وكان يوم أحد، فتشت عن التذاكر التي اشتريتها يوم السبت فلم أجدها بشكل من الأشكال فقالت لي زوجتي:

ـ لقد أصبحت كالأهبل منذ أن لبست معطف النائب.. فهل تظن أنك أصبحت نائباً بحق وحقيق.. ماذا جرى لك.. إنك تضيع كل ما يصل إلى يدك!.. اسوأ من هذا كله أنني وضعت في أحد الأيام مبلغ مائة وخمسون ليرة من فئة الخمس والعشر ليرات ضمن لفافة من القماش، ووضع اللفافة في جيب المعطف الداخلي بعد أن تأكدت من وضعها جيداً.. فتشت كل جوانب المعطف داخله وخارجه، الجيوب والبطانة فلم أجد شيئاً. عندها غضبت زوجتي كثيراً وصرخت في وجهي قائلة.

ـ لقد سرقت النقود منك.. طبعاً إن من يلبس مثل هذا المعطف، سيلفت أنظار اللصوص إليه، لأنهم سيظنون أنه رجل غني.. أما المناديل، فلا تسألوني عنها، فأنا أفقد منديلاً كل يوم!..

في أحد الأيام استدنت مبلغ خمسين ليرة من أحد أصدقائي، وبعد أن وضعتها في جيب المعطف الداخلي وبعناية وزررت الجيب، عدت إلى البيت.. أين النقود.. لم أجد شيئاً فقالت زوجتي:

ـ هاقد سرقت ثانية..

ـ يا عزيزتي، كيف يمكن أن أسرق والجيب لازال زره مغلقاً.

ـ لعله لص محترف. فهو يستطيع أن يزر الجيب بعد أن يأخذ النقود..

ـ فتّش جيوب المعطف جيداً، فقد يكون فيه ثقب أو مكان مهترئ.. لم يكن فيه أي ثقب أو مكان مهترئ.

انتهى فصل الشتاء، وجاء فصل الربيع. خلعت المعطف عن ظهري.. ووضعته في الخزانة.

وفي أحد الأيام كنت أعاني من ضيق ذات اليد.. فكرت من أين سأحصل على النقود؟. فتذكرت ما قاله لي الرجل الذي باعني المعطف.. إجلب المعطف في الصيف وخذ مبلغ المائتين وخمسين ليرة التي دفعتها.

كان من غير الممكن حمل هذا المعطف الكبير في اليد.. فلبسته ونحن في شهر حزيران الحار ثم ذهبت إلى بائع الألبسة المستعملة، وذكرته في الوعد الذي قطعه على نفسه فقال لي:

ـ بكل سرور، سآخذه منك بمبلغ مائتين وخمسين ليرة.

كنت على استعداد لأن أبيعه بمائة ليرة، وليس مائتين وخمسين.. ثم اضاف البائع قائلاً:

ـ عد في الشتاء أيضاً، وسأبيعك إياه ثانية بنفس السعر!..

ساورني الشك في كلام هذا الرجل، هل هو مجنون، فكيف يشتري مني المعطف بنفس السعر الذي باعني إياه. بعد أن لبسته لمدة شتاء كامل.. أين ربحه إذن.

قلت لبائع الألبسة وأنا أودعه:

ـ حسناً مادام الأمر كذلك ـ دعني ألبسه اليوم ـ وسأبيعك إياه غداً.

ذهبت إلى دكان أخرى تبيع الألبسة الجاهزة، وقلت للبائع أريد أن أبيع هذا المعطف، فقال لي الرجل بعد أن قلبّ المعطف عدة مرات. هذا ثمنه خمسون ليرة!..

إنه لغز يصعب حله.. فأنا جئت إلى الدكان الثانية، طمعاً في بيع هذا المعطف الثمين بأكثر من مائتين وخمسين ليرة.

رجعت إلى بيتي في آخر الليل وأنا غارق في أفكار شتى.. تلبدت السماء في الغيوم أردت أن أدخن سيكارة.. وجدت السيكارة لكنني لم أجد الكبريت.. رغم أنني سمعت صوت قرقعة علبة الكبريت.. فظننت أنها وقعت على الأرض، انحنيت لألتقطها، فلم أجدها، بدأت أبحث.. وأبحث.. كنت أبحث في الظلام، وفيما أنا كذلك سمعت صوت صراخ سيدة تقول:

ـ النجدة ثم سمعت صوت صفارات الحراس، وأعقب ذلك صوت

حركة وضجة، ثم شاهدت رجلاً معه عصا يهجم عليّ.. قبضوا عليّ وساقوني إلى المخفر، واتهموني بأنني كنت أختلس النظر. وحسبما قالوا: أنني كنت أقف أمام المنزل وأنظر من النافذة إلى الداخل.. كانت النافذة.. نافذة مرحاض..

أقسمت يميناً لرئيس المخفر.. ولكنه لم يصدقني.. لأن ما حصل يصعب تصديقه وهو أنني عندما كنت أبحث عن علبة الكبريت، استغرقت بالبحث، فوصلت إلى أحد المنازل المخالفة، فصعدت بناء فوق الدرج داخل الحديقة.. وقلت لرئيس المخفر:

ـ أنا إنسان شريف يا سيدي.. انظر إلي جيداً، فأنا ليس لي حال لكي أبصبص على أحد فقال لي:

ـ هو.. هوهو.. رأينا سادة كُثر من أمثالك، وكلهم يحبون البصبصة.

ـ والله لم يحصل.. بالله لم يحصل..

ـ حسناً.. إذا لم يحصل فماذا كنت تفعل إذن في حديقة الناس وأنت تقف فوق قن الدجاج؟

معه حق أن لا يصدق، حتى ولو قلت له أنني كنت أبحث عن علبة الكبريت.. وكيف سيصدق أنني أبحث عن علبة الكبريت فوق قن الدجاج.. وفي الأسفل نافذة المرحاض.

ـ لقد حصل خطأ يا سيدي.. فقد حسبت أنني في بيتي.. أما كيف صعدت إلى ذلك المكان، فأنا نفسي لا أدري!..

بدأوا بكتابة الضبط.

ـ ما اسمك؟

إيه نحن أناس معروفون جداً في محيطنا، ولو قلت له عن اسمي الصحيح، فسيكون موقفي صعباً أمام الناس لأن الصحف ستكتب في اليوم الثاني «أنه تم القبض على رجل بصباص وهو في الجرم المشهود!..» فقلت له:

ـ اسمي محمد.

ـ الكنية؟

ـ دمير.

تم تنظيم الضبط اللازم وقرروا سوقي إلى المحكمة في صباح اليوم الثاني.. إلا أن أحد الشرطة فاجأني بسؤاله قائلاً:

ـ لماذا تلبس هذا المعطف السميك، في هذا الطقس الحار؟..

وأضاف رئيس المخفر.

ـ حتى أن هذا المعطف ليس معطفك!..

ـ إنه معطفي ياسيدي..

ـ ولكن كيف يكون لك.. إنه يتسع لثلاثة أشخاص أمثالك.. هيا فتشوه جيداً.. خلعت المعطف فجاء اثنان من الشرطة وبدأوا التفتيش..

ـ ماهذه الأشياء.؟

كان قد سقط من بطانة المعطف حوالي عشر أو خمسة عشر مفتاح مرة واحدة.. من بين هذه المفاتيح، مفتاح المنزل والغرف، والمكتب، والخزائن.. كل المفاتيح التي أضعتها سابقاً كانت موجودة.

ـ ولك ماهذا؟..

- إنها مفاتيحي..

- لقد فهمنا الآن.. هل أنت بائع أقفال؟..

قلبوا المعطف وفتشوا داخله فعثروا على تذاكر البواخر، والأوتوبيسات وعدة مناديل، وموس، وسكين وخبز، ولفة فيها نقود، وسبع أقلام رصاص، وسوتيان (قد يكون الولد أسقطهم في جيب المعطف؟..، قطع ورق، ستة عشر باكيت سكائر، خمس علب كبريت، فردة جراب نسائية (وهذه يمكن أ، يكون الولد قد رماها..، ومعروضين، وفرشاة أسنان.. فسألني رئيس المخفر:

- ماهذه الأشياء؟.. حتى البواخر العائدة من سفرها. لايخرج منها كل هذه الأشياء. بدأت بالتفكير..

- بماذا تفكر؟..

إنني أفكر كيف أنني حملت كل هذه الأثقال عدة شهور؟..

لم يعد هناك بد من أن أقول له كل شيء حصل معي وبالتفصيل.. أمضيت الليل في المخفر. وذهبنا في الصباح إلى بائع الألبسة المستعملة الذي اشتريت منه هذا المعطف، وفهمت عندئذ لماذا قبل باستعادة المعطف ودفع مبلغ مائتين وخمسين ليرة، وكما يتأكدون من آلية الخروف عند شرائه، تأكد البائع مني، ومن ذيل المعطف ثم قال:

- أبداً .. إن هذا المعطف ليس هو الذي بعتك إياه!..

- أمان.. ماذا تقول.. ألست أنت الذي قبلت البارحة باستعادته وإعادة المبلغ الذي دفعته أنا.. أي مائتين وخمسين ليرة؟..

- أنا.. أنا قلت ذلك؟.. إنني لا أعرفك.

تخلصنا من تهمة اختلاس النظر، وانقلب الموضوع إلى السرقة.. تم العثور على صاحب المعطف الأصلي.. وأعيد المعطف الذي سُرق من بيت النائب قبل عامين، واستعاد النائب معطفه.. لم أتضايق لما حصل، ولكن الذي أزعجني حقاً، هو أن هذا النائب الضخم، صاحب هذا المعطف، قال أنه هو صاحب هذه الأشياء التي أخرجوها من بطانة المعطف، قال نعم كلها لي ماعدا هذا السوتيان الزهري الذي تمت خياطته في البيت والذي لم يعجبه فقال: «هذا ليس لي».

* * *

٨ ـ صلابة الرجل

يمكن أن تكونوا قد تعرفتم على صلابة بعض الناس، كما لايمكن أن تكونوا رأيتم شبهاً للسيد نعمان، فهو أصلب إنسان على الإطلاق، وأي إنسان آخر يمكن أن تتعرفوا عليه، سيكون طرياً مثل شمع العسل مقارنة مع السيد نعمان.

وكما علمت أنه لم يترك المسدس من يده حتى بلغ سن الأربعين يتسلى به كأنه مسبحة. يلعب دوماً بالزناد.. وكما علمت أيضاً، بأنه سبق وأطلق النار على عدد من الأشخاص لكنه أخطأهم جميعهم رغم تسديده على الهدف بدقة متناهية. في نظره حَوّل، ولهذا يخطئ جميع أهدافه.. علماً بأنه كان يمتهن عيار شعيرة المسدس أو البارودة لجميع العيون التي ليس فيها حوّل.. ولو أن أحد مصانع المسدسات صنع مسدساً خاصاً تلائم شعيراته عيون نعمان بك، فلا شك بأن نعمان بك سيصيب الذبابة الطائرة في بؤبؤ عينيها!.. لا نظير لهذا المعلم في تسديد الهدف، لكن المسدسات لا تتطابق مع العيون غير الطبيعية.. كما أن عيون نعمان بك لا تنطبق على المسدسات الطبيعية، لذلك فإنه لايصيب هدفه.. عين نعمان بك اليمني فيها انحراف مقداره عشر درجات باتجاه الشمال الغربي، أما عين اليسار ففيها انحراف مقداره ثمانية درجات وسبع ثواني نحو الجنوب الغربي. أي أن الرؤيا ليس فيها تطابق، فالحول في أحد العينين بعكس العين الأخرى، لذلك فهو يحتاج لمسدس ذو

سبطانتين، وعندها سيدعو لربه كل من ينجو من رصاصات مسدسه يقول:

- يارب إنك أدرى، وأعلم عبد يستحق أن يكون أحولاً..

لايمكن لأحد أن يفهم: لماذا. ومتى يغضب، وما الذي يغضبه.. فعندما يكون جالساً في مجتمع ما يتورد وجهه فجأة ويصبح أحمر كالشمندر.. ويعتبر إحمرار الوجه بالنسبة له أول علامات الغضب، بعد ذلك تبدأ شواربه بالتراقص، ثم يبدأ بفتل شاربه اليمين ثم شاربه الشمال.. وعندها يجب أن لا يقترب أحد منه ويسأله ماذا حصل؟ أو ماذا بك؟.. لأنه سيغضب أكثر. في هذه الحالة يجب المحافظة على الهدوء أو السكوت.. عندها يستمر نعمان بك بفتل شواربه لمدة يومين ثم يهدأ بعد ذلك.

لايمكن معرفة سبب غضبه، حتى لو بدأ بفتل شاربيه، ولكن إذا استمر الضغط على أعصابه فتبدأ عندها حواجبه الكثيفة بالرجفان.. بعد ذلك ترتجف خدوده وشفتاه.. فإذا رأيتم إحمرار وجهه، وارتجاف شاربيه، وحاجبه، وخديه، معنى ذلك أنه ستحصل كارثة!..

تعرفت على نعمان بك بعد أن تجاوز الخمسين من عمره، وكان قد تخلى عن حمل المسدس. ولكن إذا غضب من أحد فإنه سينزل بالضرب على رأس ذلك الشخص. بكل ما يمكن أن تقع عليه يده.. أو يلقي بالشيء الذي يحمله بقوة على الأرض!..

في أحد الأيام جاء لزيارتنا. بصحبة زوجته وابنته، ضحكنا وسهرنا. ولا أدري ما الذي أغضب نعمان بك حتى مسك الكرسي الذي كان يجلس عليه وأنزله على رأس قطة نائمة على البساط، بدأت

KMH

القطة بالمواء ثم تشبثت بالبساط ولفت نفسها فيه وصارت أشبه ما يكون بالوسادة الكبيرة.

كان هدف نعمان بك هو أن يرمي الكرسي على إبنته، ولكن كالعادة لم يصبها فقتل القطة.

أتمت ابنة نعمان بك، دراستها في الكلية الأمريكية، وتعمل الآن في إحدى الشركات الأجنبية، وهي فتاة جميلة، أخذت الأصل عن والدها، بالطول، وباقي العادات عن والدتها، ولم يكن لدى نعمان أولاد غيرها.. تعرفت الفتاة على شاب أميركي يعمل معها في نفس الشركة وأحبته، ولعلهم أحبوا بعضهم أكثر من اللازم حتى أصبح لزاماً عليهم أن يتزوجوا، لكن من يستطيع إقناع نعمان بك بأنه ملزم على تزويج ابنته من هذا الأميركي، التي حملت منه، وهي الآن في الشهر الثاني.. كما أن الأميركي متمسك بالفتاة، وأمها راضية من تزويج ابنتها بهذا الأمريكي منذ البداية لكن من سيتطوع بإقناع نعمان بك؟..

جاءت والدة الفتاة وطلبت مني مفاتحة نعمان بك بالموضوع فقلت لها:

ـ معذرة أنا لا أحب التدخل في الشؤون العائلية.

كان لنعمان بك صديق منذ أيام الجيش تطوع للقيام بمهمة إقناعه فقال:

ـ أنا سأقنع نعمان بك!..

كان هذا الرجل يعرف جميع طباع نعمان بك، كما يعرف أين يمكن أن تذهب السكين التي في يده إذا رماها، كما أنه يعرف درجة

انحرافها، سواء أكان هذا الانحراف نحو اليمين أو نحو الشمال.. فذهب إليه وكان يجلس بمفرده في المنزل وقال له وبدون مقدمات..

ـ إن ابنتك يا نعمان تريد الزواج من شاب أميركي.

احمر وجه نعمان بك، وبدأت شواربه وحواجبه وشفتاه بالرجفان دفعة واحدة، أمسك إبريق الماء ورماه فوق الرجل. لكن الرجل لم يصب بأذى لأنه كان يعرف درجة الحول في عيني نعمان بك. لذلك كان يجلس في مكان يستطيع أن يكون فيه بمأمن من نعمان بك.. لم يتوقف الرجل عن الكلام فتابع حديثه:

ـ لاداعي للغضب على الفاضي، فالأمر قد خرج من اليد، والفتاة حامل الآن، مسك نعمان بك الكرسي الذي كان يجلس عليه ورماه على الرجل، وخلال نصف ساعة لم يبق في البيت شيء ولم يتحطم ويسقط على الأرض.. بعد ذلك هوى نعمان بك منهكاً على الأرض، وشارباه وحاجباه يتراقصان فقال له صديقه:

ـ لافائدة من الغضب.. الفتاة حامل.. ويجب أن تتزوج من الأميركي..

فأجابه نعمان بك وهو يلتقط أنفاسه:

ـ أنا أوافق إذا أعلن إسلامه.

سألوا الأميركي فأجابهم:

ـ أنا مستعد لأن أصبح مسلماً، أو كاثوليكياً، أو يهودياً، كما تريدون.

عندها قال نعمان بك:

- يجب أن يتم طهوره..

سألوا الأمريكي فقال:

- إنني موافق.

بعد ذلك.. تم دعوة الأميركي إلى بيت نعمان بك.. أو بالأحرى طلبوا منه المجيء إلى بيتهم ليتم طلب البنت من والديها بشكل رسمي.. اغتنمها نعمان بك فرصة فقام بدعوة جميع أصدقائه ومعارفه إلى طعام العشاء.. ودعينا نحن أيضاً.. لقد فهمت لماذا أقام نعمان بك بدعوة كل هؤلاء الناس.. كان يريد أقناع نفسه بأنه لم يقم بعمل شيء عندما وافق على زواج ابنته من هذا الأميركي. وليكسب تأييد جميع المدعوين له..

حضر الشاب الأميركي.. وكان شاباً وسيماً، جميلاً، وأنيقاً.. طويل القامة ساقاه طويلتان أشبه بالمالك الحزين، وربما كان من أصل إيطالي.. لأن لديه حرارة وخفة دم سكان البحر الأبيض المتوسط، وكان أسمر اللون ذو وجه بشوش.

جلسنا تسعة أشخاص على مائدة الطعام. كان نعمان بك صامتاً بالرغم من أنه يعرف اللغة الإنكليزية.. نظرت إلى وجهه لم أر فيه شيء يرتجف، معنى ذلك أنه ليس غاضباً وهذا مؤشر جيد.

وقبل أن أجلس إلى مائدة الطعام همست في أذن صديق نعمان بك في الجيش وسألته:

- لو أنه رمى الأميركي بشيء ما فأين سيأتي هذا الشيء؟.. فقال لي:

- سيأتي إلى هذا الكرسي.

وإذا بنعمان بك يشير علي بالجلوس على ذلك الكرسي قائلاً:

ـ تفضل بالجلوس هنا.

فجلست على الكرسي الذي يلي كرسي الأميركي.

لم يتوقف الأميركي عن الكلام والضحك، وقال أنه أمضى فترة خمس سنوات في الصين لذلك فهو يعرف اللغة الصينية، وأمضى ثلاث سنوات في الهند وتعلم اللغة الأردية، ثم قال:

ـ أنا أستطيع التعايش بسرعة مع البيئة التي أكون فيها فسألته:

ـ وهل تعلمتم اللغة التركية؟..

ـ قليلاً.. فأنا أعرف بعض الكلمات.. لأنه لم يمض على مجيئي إلى تركيا سوى أربعة اشهر.. كان واضحاً أن هذا الأميركي يتعايش فعلاً مع المكان الذي يوجد فيه، حيث نضجت طبخته مع الفتاة خلال أربعة أشهر.

ـ من يعطيك دروس اللغة التركية؟..

ـ أفضل طريقة لتعليم اللغة الأجنبية، هي الاختلاط بفئات الشعب، لذلك فأنا أتعلم اللغة من عمال البناء الذين يعملون في المشروع الذي تقوم فيه شركتنا، لكنني لم أتعلم سوى ثلاث أو أربع كلمات.. أشكرك.. أرجوك.. أنا مسرور منك.. أستودعك الله، وكان يلفظ هذه الكلمات باللغة الإنكليزية.

بعد ذلك ملئت الأقداح بالعرق فرفع نعمان بك قدحه وقربه من قدح الأميركي فقرب الأميركي قدحه ولمس قدح نعمان بك وقال باللغة التركية:

ـ حمار بن حمار!.

نظرت إلى وجه نعمان بك، لقد أصبح أحمر كالشمندر، وبدأ شاربه بالارتعاش كأجنحة الفراشة، وحواجبه تتراقص، وبدأت شفتاه ترتجفان ثم صرخ غاضباً.

ـ ماذا قلت؟..

فرفع الأميركي قدحه في الهواء وقال ضاحكاً:

ـ حمار بن حمار!.

وخوفاً من حصول أية مفاجأة، فقد رميت الشوكة على الأرض وتظاهرت بأنني أبحث عنها فنزلت تحت الطاولة.

قال المدعوون الذين يجلسون على مائدة الطعام لنعمان بك:

ـ أمان.. لاداعي للغضب.. لابد ان هناك خطأ.. أو علّموه خطأ.

رفعت رأسي قليلاً من تحت الطاولة، ونظرت إلى نعمان بك، كانت حواجبه لازالت ترقص، وخدوده وشواربه ترتجف، ولكنه يتصنع الضحك. ثم التفت إلى الضيوف وبدأ يتكلم معهم، وهو يضحك ضحكة باردة.

أما الضيوف فكانوا لا يتوقفون عن الضحك لتلطيف الأجواء، وكان الأميركي لا يتوقف عن الضحك أيضاً، ورغم تحسن الجو بعض الشيء، إلا أن نعمان بك مازال كل شيء فيه يتراقص..

وبعد فترة التفت الأميركي إلى عم المستقبل وقال له باللغة التركية وبصوت عال.

ـ ولك يا مبهدل!..

قالها وكأنه يحاول أن يؤكد للجميع معرفته باللغة التركية.. وبدأ يضحك بعد ذلك بصوت عال. أما نعمان بك، فمسك إبريق الماء، وقفز من مكانه، ووقف شعر رأسه، وأصبحت حواجبه مثل شوكة القنفذ.

ـ رجاء يا نعمان بك.. الرجل لا ذنب له. هذا هو شعبنا..

مازلت تحت المائدة، بحجة التقاط الشوكة التي سقطت مني بعد ذلك نهضت. وكان الوقت يمضي بسرعة.. فقام الأمريكي هذه المرة وقدم قدحه من نعمان بك وصاح في وجهه قائلاً:

ـ حمار ابن حمار!..

لو رأيتم نعمان بك.. لقد غرز السكين الذي في يده في فخذ الدجاجة المطبوخة والموضوعة على طبقه وجميع أعضاء جسمه ترتجف بما في ذلك أذنيه.

بعد ذلك قال الأميركي، شتيمة لايجوز كتابة كلماتها هنا.. كانت الشتيمة تتعلق بوالدة نعمان بك هذه المرة.. خفت على روحي. فاختبأت تحت الطاولة مرة أخرى، كانت أقدام نعمان بك ترتجف بتواتر لا مثيل له، وكأن تياراً كهربائياً يسري فيها، أما الأميركي فكان لا يتوقف عن الضحك.. نهضت بهدوء من تحت الطاولة، وكان الأميركي يقول:

ـ لقد تعلمت هذه الكلمات بسرعة فائقة، فأنا لدي قابلية لتعلم اللغات!..

تأكدت من أن جناية لابد أن تقع فاستأذنت بالانصراف قائلاً:

ـ اسمحوا لي فأنا لدي عملاً مهماً في الغد ويجب أن أستيقظ

باكراً. وكان هناك كثير من المدعوين ينتظرون هذه المبادرة فقاموا أيضاً وقالوا:

ـ لنذهب نحن أيضاً.

فهم الأميركي، الشاب اللطيف، أنه حان وقت الانصراف. وفيما كنا نودعه عند الباب صافحنا جميعنا فرداً فرداً. ثم صافح نعمان بك وقال له وهو يضحك:

ـ يا قواد!..

لم أسمع في حياتي أحداً يلفظ كلمة قواد بمثل هذه العذوبة.. ساد الصمت على الجميع احتار الأميركي. فسأل بالإنكليزية:

ـ هل تكلمت كلمة خطأ؟..

فقال له نعمان بك:

ـ أبداً لقد قلت الصدق..لأنه لو قال خطأ. فسوف يعتبر أنه قبل بالقوادة.. ووافق أيضاً على القوادة التي قام بها العريس الأميركي المرشح.

عند ذلك التفت الأميركي الشاب إلى نعمان بك الذي سيصبح حماه وكرر كلمة قواد مرة أخرى لكي يكبر في عيني حماه ثم غادر المكان وانصرف.

انهار نعمان بك على مقعده بعد خروج الأميركي، وهو لايقوى على النطق. وبعد برهة قال والألم يعتصر قلبه:

ـ لقد فتح الرجل سجلنا، وعدد أوصافنا، وعرف كنيتنا، لذا أصبح لزاماً علينا أن نزوجه ابنتنا.

لم يسبق لنا أن رأيناه غاضباً بهذا الشكل أبداً.

وفي اليوم التالي كان من المتوقع أن يأتي الأميركي إلى منزل نعمان بك ولكنه لم يأت. بدأ القلق يساور نعمان بك، وكان يضرب نفسه ويقول: «ماذا لو تخلى هذا الرجل عن فكرة الزواج من ابنتنا بعد أن عرف كنيتنا».. وفي هذه الأثناء رن جرس الهاتف وكان الأميركي يتكلم من أحد المخافر.. لقد خرج ليلاً من منزله وركب التاكسي وعندما وصل إلى بيت نعمان بك وفيما كان يهم بالنزول أراد ان يشكر سائق التاكسي فقال له باللغة التركية:

ـ ولك يا مبهدل!..

اشتبك مع السائق، فذهبا إلى المخفر. فقام رئيس المخفر بمصالحة الأميركي مع السائق. وبينما كان يغادر المخفر، التفت إلى رئيس المخفر وقال له كلمة أستودعك الله، كما علموه أياها.. لقد كانت هي نفس الكلمة التي قالها للسيد نعمان بك وهو يستودعه الله.. عند ذلك قام رئيس المخفر بتنظيم ضبط بحق الأميركي وزجه في النظارة، استغرب الأميركي وبدا يقول لنفسه:

ـ ماذا فعلت أنا، ماذا قلت؟. ماهو ذنبي؟..

تزوج الأميركي بعد ذلك من ابنة نعمان بك، ولم يمض يومين على زواجه حتى كان يرقد في المستشفى.. لأن نعمان بك غضب من خادمه فرمى زورق الطعام على رأسه وبما أن العريس الأميركي كان يقف على زاوية مقدارها عشر درجات إلى الشمال الغربي من الخادم. فقد جاء الزورق على رأسه تماماً وانكسر.

أخذ الأميركي زوجته وسافر إلى أميركا.. وأصبح نعمان بك

يتذكر تلك الأيام بنشوة ويقول:

ـ كانت هي المرة الأولى التي أصيب فيها بدقة... فبعد كل الشتائم التي تحملتها من صهري. كنت سأموت من الغيظ لو لم أشَّج رأسه.

لقد افتعل الغضب مع خادمه، وتصنع برمي الزورق على رأس الخادم، ولكنه رماه على رأس العريس.

* * *

٩ ـ عمل الخير ثواب

حتى مساعد المدير العام عرف الخبر، وهو أن حساب السيد حليم مكشوف على مبلغ مائتين وثمانين ليرة.

كانت دهشة مساعد المدير العام كبيرة، فهذا الموظف يعمل في الشركة منذ أربعة عشر عاماً، وهو واحد من أكفأ موظفي الشركة وأكثرهم أمانة، وزاد من دهشته أن الحساب مكشوف على مائتي وثمانين ليرة فقط.. فالسيد حليم لديه الإمكانات ليسرق بدل المائتين وثمانين ليرة ألفان وثمانمائة ليرة، لو أطاع الشيطان وأساء الأمانة، وسوف لن يعلم بأمره أحد، حتى لو أصبح بذمته مبلغاً قدره ثمانية وعشرون الفاً، وهذا المبلغ لن يكشف أمره إلا بعد مدة طويلة.. لذلك فإن مبلغ المائتان وثمانون ليرة لا يستحق الاهتمام في هذه الأيام..

لم يكن السيد حليم من يتكلم عن مبلغ المائتين وثمانون ليرة، بل شخص محترم من موظفي الدرجة الثانية ويعمل في الإدارة المركزية.. ولم يتصرف السيد حليم مثل أمناء الصناديق أو الموظفين الذين يعملون في قسم المحاسبة، فيعتبرون أن مثل هذا الموضوع هو أمر عادي ويمكن تداركه بسهولة، فيقومون بتسديد النقص من إيرادات التأمينات.

كان مساعد المدير العام يعتقد أن السيد حليم لاعلم له بأمر هذا المبلغ الناقص فقال:

ـ إنه سيفهم الموضوع من تلقاء نفسه، خلال حسابات آخر الشهر.

لقد تبين في حسابات آخر الشهر أن السيد حليم أصبح حسابه مكشوفاً على مبلغ أربعمائة وعشرين ليرة، وفي الشهر التالي اصبح حسابه مكشوفاً على مبلغ ثمانمائة وإثني عشر ليرة.. فهل يمكن أن يكون هناك خطأ في الحساب؟.. كلف مساعد المدير العام أحد الموظفين بتدقيق الحسابات.. فتبين أن هناك نقص.

ولتلافي هذا النقص تم دفع منحة للسيد حليم مقدارها ألف ليرة لكفاءته ونشاطه، فحضر في اليوم الثاني لاستلامه المكافأة وتسديد النقص، معنى ذلك أنه كان على علم بوجود هذا النقص!..

بعد شهر من استلامه المكافأة عاد النقص للظهور من جديد في حسابات السيد حليم، كان النقص يزداد كل شهر، وبما أن المكافآت لا تدفع عادة إلا مرة واحدة. وراتبه زاد مع بداية العام، حيث أصبح مقداره مائة وخمسون ليرة شهرياً.. استمرت حساباته صحيحة لمدة شهرين بعد زيادة الراتب، وبعدها بدا النقص في الحسابات بالظهور، تم تأمين عمل إضافي له، ليؤمن له دخلاً إضافياً ومقداره مائتي ليرة شهرياً، وأيضاً خلال فترة قصيرة بدأ العجز يظهر في الحسابات، وفي نهاية العام قبض السيد حليم راتباً مضاعفاً أسوة بباقي الموظفين، فقام بتسديد النقص المترتب عليه، لكن ذلك أيضاً لم يدم طويلاً حتى عاد النقص يظهر أيضاً في حسابات السيد حليم.

بدأ الشك يساور مساعد المدير العام، فهو يحب هذا الموظف الذي عمل معه كل هذه المدة الطويلة ويثق به ثقة عمياء.. فهل كان مدمناً على لعب الميسر؟. حقق في الأمر فتبين أن السيد حليم لا يلعب

الميسر.. دوامه كعادته من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل، وهو لا يتناول المشروب سوى مرة في الشهر أو في السنة.

هل وقع إذن في حب امرأة؟ ويبعثر نقوده عليها في الملاهي؟.. لم يكن الأمر هكذا أيضاً.. فأمثال أولئك النساء لا يعتبرون مبلغ المائتين أو الثلاثمائة ليرة مبلغاً ذي قيمة.

تم تغيير وظيفة السيد حليم بوظيفة أكبر، ولكن ليس لها علاقة بالنقود، فبدأ السيد حليم بطلب سلف على راتبه، وكان يأخذ كل شهر سلفة مقدارها ثلاثمائة أو خمسمائة ليرة.

كان مساعد المدير العام يتابع تصرفات السيد حليم باهتمام، وفي أحد الأيام استقبله في غرفته عندما جاءه من أجل زيادة راتبه، وبعد استقباله ببشاشة وترحاب وشربا القهوة، ودخنوا السكائر سوية. والمدير لا يرفع نظره عن السيد حليم ويقول في نفسه ماذا جرى لهذا الرجل؟ بعد ذلك سأله:

ـ كم تقبض من الدراهم شهرياً؟..

أجاب السيد حليم باستحياء.

ـ ألف ومائتين ليرة.

فقال له مساعد المدير العام:

ـ أنا أقبض خمسة آلاف ليرة، ولكننا عائلة كبيرة مؤلفة من ستة أشخاص. كم عدد أفراد أسرتك؟..

ـ نحن أربعة أنا وزوجتي ووالدتي وإبني.

ـ كان راتبك ٨٠٠ ليرة في العام الماضي.. معنى ذلك أن الزيادة

٤٠٠ ليرة خلال مدة سنة. بقي السيد حليم صامتاً فتابع مساعد المدير العام حديثه:

ـ خلال أربعة عشر عاماً لم يسبق أن اشتكيت من راتبك.. فهل أن ازدادت مصاريفك في الأونة الأخيرة.

أجاب السيد حليم:

ـ نعم ظهر لنا مصروف جديد!..ـ ماهو؟..

ـ الكافيار!..

لم يفهم مساعد المدير العام فساله:

ـ ماذا تقول؟..

ـ كافيار..

ـ هل قلت كافيار؟..

ـ نعم لقد اشتريت الشهر الماضي ستة عشر كيلو غراماً من الكافيار!..

ظل مساعد المدير العام ينظر باستغراب إلى السيد حليم، لأنه يعرف أنه رجل جدي ولا يحب المزاح، معنى ذلك أن المسكين فقد عقله.

ـ ماذا تقول يا سيد حليم، إن أكبر دكان بقالية، وأكبر دكان للمازاوات لا تبيع في الشهر ستة عشر كيلو كافيار. ماذا تفعلون بكل هذا الكافيار؟..

ـ نأكله يا سيدي..

ـ هذا غير معقول، فأنتم لا تستطيعون أن تأكلوا ستة عشر كيلو زيتون، أو جبنة، أو سكر في الشهر.. أنا وعائلتي لم نأكل في حياتنا

كلها ستة عشر كيلو، أو حتى ستمائة غرام، فكيف تأكلون كل هذه الكمية؟..

ـ أنا محسوبكم، لا آكله، ولا أضعه في فمي، كما أن زوجتي لا تأكله، وابني لايحبه ووالدتي هي التي تأكله..

ـ عفواً كم هو وزن والدتك؟..

ـ لاتسأل يا سيدي. المسكينة وزنها أربعة وأربعين كيلو.. إنها تكاد تطير من الهزال.

ـ هل تقصد أن والدتك التي لا يتجاوز وزنها أربعة وأربعين كيلو غراماً، تأكل ستة عشر كيلو كافيار في الشهر.. لم أفهم ما تقوله.

سأشرح لك الموضوع. والدتي عمرها سبعة وستون عاماً.. وأمورها جيدة فهي تملك عمارة كاملة وتأخذ منها ريعاً شهرياً مقداره ألفان وأربعمائة ليرة. كما أنها تملك خاناً كبيراً، ويأتيها منه ريع شهري مقداره عشرة آلاف ليرة، ولديها عدة شقق في أماكن متفرقة من استانبول.

سيطرت الدهشة على مساعد المدير العام فيما كان السيد حليم مستمراً في حديثه.

ـ لديها أربعة دكاكين أيضاً بالإضافة إلى الراتب التقاعدي، الذي تركه والدي لها، ولديها أموال نقدية لاتقل عن مليون ليرة منها أربعمائة الف ليرة في البنك، وبضع مئات الآلاف في البيت ماعدا المجوهرات والذهب.

فقال مساعد المدير العام بدهشة:

ـ واه .. واه.. واخ.

ثم تابع السيد حليم حديثه:

ـ مسكينة والدتي. إنها تستحق الشفقة، لأنها مريضة وتذوب تدريجياً منذ عشر سنوات. وأصبحت كالعصفور بعد أن كانت امرأة ضخمة.

ـ لماذا لا ترسلونها إلى أوروبا؟

ـ لأنها لاترضى.. وهي ليس عندها في هذه الدنيا سواي، لذلك فإنها لاتفارقني أبداً. قبلت السكن معي في هذه الشقة الصغيرة المؤلفة من غرفتين ونصف.. الوالدة بخيلة بعض الشيء.. وهي لاتحب أن تصرف قرشاً واحداً من نقودها. حتى لو اضطرت للذهاب إلى الطبيب. أنا أجلب لها الطبيب، ولكنها مع ذلك تغضب وتقيم القيامة فأضطر لأكذب عليها فأقول لها «إن الطبيب صديقي، وأنا لم أدفع له نقود، وعندها تقول لي: «عمل الخير ثواب، هناك أيضاً سيدة مريضة في الطابق السفلي، مادام الدكتور صديقك فخذه ليكشف عليها- إنه ثواب».. آخذ الدكتور وأذهب معه إلى جارتنا المريضة. لأنني إذا لم آخذه سوف تغضب الوالدة، وينبهني الطبيب بعدم إغضاب والدتي.

اشتري الوصفة من الصيدلية، فتقوم قيامتها، فأقول لها «لقد اشتريت هذا الدواء بسعر رخيص من أحد الصيادلة الذين اعرفهم» ثم أقنعها بأنني أخذت الدواء الذي سعره خمسين ليرة بخمس ليرات، تغضب ثانية، ويجب أن لا أغضبها لأنها مريضة بالقلب، وعندما تجد أن العلاج رخيص تقول لي «عمل الخير ثواب، هناك أحد الجيران،

أستاذ متقاعد، اشتر له العلاج أيضاً». فأضطر لشراء العلاج للفقراء والمحرومين.

كان جميع الأطباء ينصحون والدتي بالقول: «يجب أن تأخذي علاجاً مقوياً!..» لكن والدتي لا تأكل، وتغضب إذا اشتريت لها طعاماً.. إذا لم تتغذى سوف تموت جوعاً، وإذا غضبت سوف تموت بالقلب.. لم أعد أعرف كيف أتصرف، ليس لها في هذه الدنيا سوى محسوبكم.. نصحها الأطباء بأكل الكافيار، وفي أحد الأيام وأنا عائد إلى المنزل اشتريت مائتي غرام كافيار. كادت والدتي أن يغمى عليها عندما شاهدت الكافيار، وبكت وقالت لي «في أي زمن نحن.. وهل هذا وقت شراء الكافيار..وأنت إذا سرت على هذا المنوال فسوف تتشرد لامحالة!..».

فأقول لها لاتغضبي يا أمي فبائع الكافيار صديقي وأنا اشتري الكافيار منه بسعر شرائه» عندها تنفرج أساريرها قليلاً فتسألني «بكم اشتريته» سعر الكيلو بمائة وأربعين ليرة ولكن لايمكن أن أقول لها عن هذا السعر. كما انها ستقول غالي عن أي سعر أخبرها عنه. فأضطر للكذب عليها وأقول لها: «لا تغضبي يا أمي.. بائع الكافيار صديقي وقد باعني بسعر شرائه وهو عشرون ليرة!..».

كادت تموت تلك الليلة من الزعل عندما علمت بسعر الكافيار، استدعيت الطبيب بسرعة فأعطاها الحقن اللازمة فهدأت قليلاً.

وفي اليوم الثاني قالت لي عندما رجعت إلى المنزل:

ـ لقد جاء الجيران اليوم، حدثتهم عن إسرافك وتبذيرك، فقالوا: «إن الكافيار رخيص إذا كان الكيلو بعشرين ليرة.. ومادام رخيصاً إذا

اشتره من بائع الجملة. أتمنى لو يشتري لنا نصف كيلو». «عمل الخير ثواب».

اشتريت نصف كيلو من الكافيار بسعر مائة وأربعين ليرة، وأعطيته للجيران بعشر ليرات، وفي مساء اليوم التالي قالت أمي:

ـ إن السيد نوري يريد مائتان وخمسون غراماً..

اشتريت الكافيار وأخذته للسيد نوري. تبين لي أن راغبي الكافيار الرخيص هم كثر ما أن يسمع أحدهم أن سعر الكافيار بعشرين ليرة، حتى يهرع للوالدة. فتعطيني الوالدة قائمة بالأسماء وتقول «اشتر نصف كيلو لفاطمة هانم، وكيلو لشادية هانم، وسبعمائة غرام للسيد فاتح..».

أعود في اليوم الثاني وأنا محمل بعلب الكافيار..فكيف سيكفيني راتبي لأشتري كل يوم اثنين أو ثلاثة كيلو غرامات من الكافيار؟.. هذا غير ممكن. وفي أحد الأيام قلت لوالدتي:

ـ إنني أخجل من صديقي لأنني أشتري الكافيار برأسماله. لذلك لن أشتري للجيران بعد الآن.. فردت علي أمي.

«عمل الخير ثواب.. دع الفقراء يأكلون الكافيار».

ـ ولكن صديقي لا يمكن أن يبيع الكافيار برأسماله لجميع الناس.

ـ حسناً مادام الأمر كذلك، وبما أنه صديقك فلا ضير إذا كان لا يربح منك كثيراً.. أضف له ليرتين على السعر فيصبح الكيلو بإثنين وعشرين ليرة...

لايمكن أن تفهم الوالدة كلامي!.. فلو قلت لها أنني أشتري

الكافيار بمائة وأربعين ليرة، وأوزعه على الجيران بعشرين ليرة فإن قلبها سيتوقف حتماً لا قدر الله.

احترت في أمري .. في البداية كنت أشتري الكافيار من إحدى البقاليات بمعدل كيلو أو اثنين يومياً، يستغرب الرجل شرائي لكل هذه الكميات.. بعد ذلك اشتريت الكافيار من إحدى البقاليات، فقال لي صاحبها:

«لايوجد عندي كافيار.. تعال في الغد..» أبدلت هذا البقال بآخر فقال لي في أحد الأيام: «لا أدري لماذا تضاعف استهلاك الكافيار هذه الأيام».. بعد ذلك بدأ سعر الكافيار بالارتفاع، واصبح سعر الكيلو مائة وثمانين، ثم ثلاثمائة وخمسين وكنت أتوزع على باعة الكافيار فاشتري كل يوم من بائع جديد.. صرفت جميع مدخراتي وكانت بضعة آلاف وفرناها بأسناننا وأظافرنا، أصابتني الحيرة كيف سأتصرف!..

وفي أحد الأيام دخلت إلى دكان يبيع الكافيار بسعر ثلاثمائة وثلاثون ليرة في الوقت الذي كان يباع بثلاثمائة وستين ليرة في المحلات الأخرى. فبدأت أشتري من هذا الدكان، وحسب طلبات الجيران، كنت أطلب منه أن يجهز لي علباً بوزن مائتي غرام، ونصف كيلو غرام، وثالثة بوزن كيلو غرام، ثم أحمل هذه العلب وأعود إلى البيت.. عندما أطلب منه بيعي كيلو غراماً يستغرب كثيراً. معظم المحلات ليس فيها كافيار سوى كيلو أو أقل، وكنت أضطر إلى جمع الكافيار الذي يطلبه مني الجيران من دكانين أو ثلاثة في بعض الأحيان، وأخيراً وجدت بقالاً وبدأت أشتري منه كل طلباتي، كان

الرجل يزن الكافيار ويجهز العلب مسبقاً، بوزن مائتي غرام، وثلاثمائة، وسبعمائة وكيلو غرام واحد، ويسلمني العلب حسب الطلب. وفي أحد الأيام ركبت الباخرة كعادتي، ووضعت علب الكافيار بجانبي، وبعد قليل تفقدت العلب فوجدت مع إحدى العلب من وزن مائتي غرام رقم تلفون كتبه أحدهم بقلمه.. الله. الله. لقد كنت أنا الذي كتبت هذا الرقم على العلبة قبل يوم!.. كان رقم هاتف أحد أصدقائي.. شيء غريب!.. وضعت إشارات فوق كل العلب..

وفي ذلك اليوم أعطيت الوالدة قائمة جديدة بالطلبات فقلت لها:

ـ يا أمي أنا لا أستطيع أن أحمل كل يوم هذه الكميات من الكافيار، كما أن صديقي قد رفع سعر الكافيار، وهو يقول بأنه يخسر إذا باعه بسعر إثنان وعشرون ليرة.

ـ يا بني عمل الخير ثواب، صحيح أنك تحمل الكافيار بيديك ولكن يديك لم تنكسرا!..

تكلم مع صديقك وارفع له السعر لكي يصبح ثلاث وعشرون ليرة.

لا أستطيع أن أقول لها لايمكن، لأنها ستغضب ويتوقف قلبها.. ذهبت في اليوم التالي إلى البقال وطلبت منه الكميات المطلوبة مني. فناولني العلب التي كان قد جهزها مسبقاً.. نظرت إلى العلب، كان بينها العلب التي وضعت عليها إشارة في اليوم السابق.. وهكذا يا سيدي فقد انتهى محسوبكم بسبب الكافيار!..

ارتفع سعر الكافيار وأصبح أربعمائة ليرة.. وأصبح الراتب لا يكفي، ولم أعد أعرف ماذا أفعل!.. قال له مساعد المدير العام:

ـ الأمر سهل. تستطيع أن تقول لوالدتك أن صديقي الذي يبيع الكافيار بالجملة قد أفلس وتخلى عن بيع الكافيار.

ـ لايمكن أن تصدقني ياسيدي.

ـ حتى لو قلت لها أنه مات!..

ـ لن تصدق. لأنها أصبحت تعرف أنني أشتري الكافيار بأربعمائة ليرة. فهي تأخذ علب الكافيار التي جلبتها في المساء وتعيدها إلى نفس البقال في الصباح وبدون أن تفتحها وتبيعها له بسعر ثلاثمائة ليرة. فأذهب واشتري الكافيار من ذلك البقال بأربعمائة ليرة وأبيعها للوالدة بثلاث وعشرون ليرة.. الوالدة تعرف كل شيء ولكنني إذا تكلمت ستغضب ويتوقف قلبها معاذ الله.

* * *

١٠ ـ يا عمي

سيداتي المحترمات.. سيداتي الشابات المحترمات جداً.. سيداتي الجميلات المحترمات جداً جداً.. لدي بضع كلمات سأقولها لكم إذا أذنتم لي بذلك.. كونوا حذرين وأنتم تتكلمون مع الرجال الأشداء. فالكلام الذي يخرج من شفتي امرأة، يصرع أكثر الرجال صلابة، ويرميه أرضاً وكأنه صاعقة سقطت فوق غصن شجرة يابس؟

هذا ماجرى مع «اللوح المحترم». كان هذا اللقب يطلق على بعض الناس الذين تتسم تصرفاتهم بالصلابة والشدة. وأحد أصدقائي يلقب بهذا الاسم..

كان هذا الصديق الوحيد من زملاء الدراسة الذي مازال يحافظ على رونقه، ويبدو عليه أنه أصغر من الجميع. كنا نبدو بجانبه وكأننا أكبر منه بعشر سنوات. كل من شاهد هذا اللوح المحترم يظن أن عمره لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، علماً بأنه قارب الخمسين.. ولأنه طويل القامة، كان يخشى أن يصطدم رأسه في إحدى عتبات الأبواب أو سقف السيارة نادراً ما يدخل من باب دون أن يحني رأسه، ولقد سيطر عليه الخوف لأنه سبق وارتطم رأسه عدة مرات في عتبة الباب. وأصبح يتهيأ في كل خطوة يخطوها فيحني رأسه ثم يرفعه وكأن رأسه سيضرب الباب.. لذلك يلقبونه بالمحترم الذي يهز رأسه. وكما يفعل الجمل عندما يحني رأسه ثم يرفعه أثناء سيره.

كان ظهره أشبه بفردتي الباب.. خشناً.. مظهره الخارجي، مثل

الداخلي. وكان صحيح الجسم صلب.

منذ أيام كنت على رصيف الميناء أنتظر قدوم الباخرة.. فلمحت اللوح المحترم في المكان الذي يقف فيه الموظفون ليتسلموا تذاكر الركاب الذين يصعدون إلى الباخرة. كان يستند بكلتا يديه على الحاجزالحديدي، وقد أحنى رأسه وظهره.. يقف ولا يتحرك... دنوت منه لأتأكد فيما إذا كان هو اللوح المحترم، أم لا!.. دنوت منه وتفحصته جيداً.. نعم إنه المحترم. كان وجهه أصفر وكأنه على وشك الانهيار..

ـ المحترم!..

سمعت أنينه، وكأنه يعاني من أزمة قلبية. مسكته من ذراعه، وركبنا سيارة أجرة وذهبنا إلى المكتب.. كان يرتاح في كل درجة يصعدها، ويستند على ركبتيه ليتمكن من الصعود.

جلسنا مقابل بعضنا البعض فقلت له:

ـ سنشرب القهوة. أليس كذلك؟..

ـ لاابابونج.

اشتد سعاله بشكل متقطع وكأنه رجل عجوز جاوز السبعين من عمره.

ـ ماذا بك؟.. ماذا جرى لك يا محترم؟..

ـ لا تسألني. راحت علينا.. انتهينا.. أصبحنا عجائز!..

سألته وأنا أتصنع الابتسامة.

ـ متى؟

ـ الآن. الآن.. في الباخرة.. شعرت فجأة بأنني أصبحت عجوزاً!..

بدأ يشرح الموضوع والسعال يقطع حديثه قائلاً أحياناً فقال:

ـ كنت أشعر بالنشوة والسرور في هذا اليوم، فأنا أحب الخريف جداً، في هذا الصباح استيقظت متأخراً، ولم أغادر السرير، فانا أعشق البقاء فيه.. لم أشعر بالراحة هذا اليوم. قرأت الجريدة وأنا مستلقٍ، وبعدها دخلت الحمام، وجلست في البانيو المملوء بالماء الفاتر، ثم تناولت طعام الفطور وخرجت بعده إلى الشارع. كانت الحيوية والشباب يسيطران علي. وكأن أحدهم نثر غباراً من الذهب في الجو.. حيث تحولت أوراق شجر الدلب إلى اللون الأصفر، وبدأت تتساقط أوراقها الواحدة تلو الأخرى، وتتطاير فوق الشارع.. ما أجمل هذا اليوم؟.. لا أستطيع أن أشرح لك مقدار سروري!.. ركبت الباخرة وأنا على هذه الحال من الفرح والسرور. ركبت في الدرجة الممتازة. وقد جلست أمامي فتاتان.. يا لهما من فتاتين كنت أسمع حديثهما وضحكتهما. إحداهن حنطية اللون، والأخرى بيضاء زهرية اللون. تنبضان بالحيوية والنشاط لدرجة أنك تستطيع أن تمسك بضحكاتهن الطائرة في الهواء كالكرة.. أنف القتاة البيضاء شامخ. وأنف الفتاة الثانية جميل جداً وفتحتا أنفيهما ترتعشان عندما تتكلمان وكأنهما أجنحة فراشة!..

ومع أنني كنت سعيداً جداً منذ الصباح إلا أن سعادتي تضاعفت لأن هاتين الفتاتين كانتا تجلسان أمامي. شعرت بأنني في الثامنة عشرة من عمري.. الدنيا جميلة ومضيئة..

وكان يجلس بالقرب مني بعض الشباب ممن تتراوح أعمارهم بين

KMH

العشرين والثلاثين.. ولكن مافائدة هؤلاء؟.. إنهم منهكون ومتعبون ويبدو عليهم أنهم أكبر مني سناً. قلت في نفسي: «أستطيع إخراج أمثال هؤلاء من جيبي..» كانت عيناي مسمّرتين على الفتاتين وقد ركزت نظري على ركبة الفتاة الحنطية، وبدأ الدم يغلي في عروقي..

أخرجت الفتاة البيضاء، سيكارة من حقيبتها ووضعتها بين شفتيها، ثم أعدت سيكارة لرفيقتها، وبحثت عن أعواد الثقاب في حقيبتها فلم تجده، كذلك صديقتها أيضاً لم تعثر عليهم أيضاً.

فكرت أن أشعل لهم بالولاعة، وتكون هناك فرصة للتحدث معهن!.. لا..لا.. لايمكن.. فأنا ليس لدي الجرأة..

مر الخادم أمامهنّ فنادينّ عليه، وطلبنّ منه الشاي وقالنّ له:

ـ من فضلك إثنان شاي.. هل لديك كبريت؟..

فقال لهم الخادم:

ـ سأجلب لكم الكبريت حالاً.

عندها مددت ولاعتي.. فلم تترك الفتاة الحنطية الفرصة لكي أولع لها السكائر وأخذت الولاعة من يدي.. آه كم كانت سعادتي بالغة.. ماهذا الحظ!.. ماهذا اليوم الجميل.. لا أعرف يوماً كنت سعيداً به كما هو حالي اليوم.. أحسست بالدم يغلي في عروقي.

أشعلت الفتاة الحنطية سيكارة رفيقتها ثم سيكارتها. وبعدها نهضت على قدميها وقالت لي وهي تناولني الولاعة:

ـ أشكرك يا عمي!..

ثم سكت اللوح المحترم، وأسند يده على الطاولة، ووضع رأسه بين

كفيه وبقي لفترة طويلة على هذا المنوال فسألته:

ـ وبعد..؟

نظر في وجهي ببلاهة وقال:

ـ ماذا بعد؟.. بعد ذلك قالوا «نشكرك يا عمي».

كانت عروق وجهه قد برزت فسألته:

ـ إيه.. وماذا جرى بعد ذلك؟..

ـ ماذا تريد أن يجري أكثر من ذلك.. ها هي الفتاة، قالت: شكراً يا عمي.

ضرب الطاولة بقبضة يده. وبعدها سقط رأسه فوق قبضته. وبعد قليل ذهب والحزن يسيطر عليه.

نظرت إليه. كان ظهره قد تقوس واحدودب، لا يستطيع أن يجر قدميه لأنهما كانتا تنوءان بحمل جسده.

سمعت بعد هذه الحادثة بمدة أسبوع، او أسبوعين بأن اللوح المحترم أصيب بالشلل.

سيداتي المحترمات.. سيداتي الشابات المحترمات جداً.. سيداتي الجميلات المحترمات جداً جداً انتبهوا قليلاً. قد تصرع الكلمات التي تخرج من بين شفاهكم الجميلة أكثر الرجال صلابة وتلقيهم أرضاً، كأنها صاعقة تسقط فوق غصن شجرة يابسة.

* * *

١١ ـ الإنسان مشاكس بطبيعته

سيدي المحترم

إنكم لا تسألونني عن جميع المعلومات الخاصة بالسيد زاهي بك. صفاته، وهل هو إنسان شريف ام لا. حياته العائلية. وهل هو أهل للثقة ام لا!.. تريدوا أن أزدوكم بكل هذه الأمور قلتم في رسالتكم لي «رأينا أن نكتب لكم بعد تأكدنا أنه لا يوجد من يعرف السيد زاهي بك عن قرب كما تعرفونه أنتم، وكلنا أمل بأن يبقى هذا الموضوع سراً فيما بيننا لأن المعلومات التي ستقدمونها لنا عن السيد زاهي بك هي واجب وطني».

لقد ثمنت طلبكم عالياً يا سيدي، وسأقوم بهذا الواجب الوطني على قدر استطاعتي بكل حياد ومسؤولية.

نعم لقد عمل محسوبكم مدة عشر سنوات مديراً للقلم الخاص للسيد زاهي بك، لذلك فأنا أكثر الناس معرفة في أمور بيته وعائلته، وحياته الخاصة، وكنت أمين سره، لذا فمن المؤكد أنني أعرف زاهي بك أكثر من أي إنسان آخر كما تفضلتم!..

ومع ذلك فمن الصعب أن يستطيع محسوبكم إعطاء أحكاماً قطعية عن السيد زاهي بك وعما إذا كان صادقاً أم كاذباً. شريفاً أم غير شريف، أميناً أم لصاً، نشيطاً أم كسولاً.. ولكن ما أستطيع فعله هو أن أسرد لكم بعض الوقائع عنه. هذا وإن كل ما سأقوم بسرده

عليكم هي أحكام أطلقها زاهي بك على نفسه!..

تعرفون أن السيد زاهي بك لا يخفي عني شيئاً، فمنذ بداية عملي معه كمدير للقلم الخاص. جاء أحد أصدقائه لزيارته، وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث. فهمت من خلال أحاديثهم أن زاهي بك لا يهتم بعمله، وان كل همه هو راحته وسروره الدائمين. قال له صديقه. يجب أن تتفرغ للعمل أكثر.. لتستطيع أن تسير بالأمور على ما يرام..كان زاهي بك يسمع هذا الكلام وهو يبتسم، وفجأة يغضب ويصرخ في وجه صديقه قائلاً:

ـ ماذا؟.. أنا لا أهتم بعملي؟.. أنا أصل الليل بالنهار، أنا أعمل يا صديقي. ثم إنني أنجز جميع أعمالي بسرعة.. هل فهمت؟.. لا يمكن أن تجد إنساناً يحب عمله مثلي، وأنا لا أضيع أوقاتي سدى، اقرأ الصحف، والكتب، والأوامر الصادرة عن الوزارة. لا أنام سوى ثلاث أو أربع ساعات، وأمضي باقي ساعات الليل في إنجاز العمل.. كما أنني لم أحصل على إجازة حتى ليوم واحد في حياتي. وبسبب بحبي لعملي أهملت عائلتي وأولادي، أنا أعمل حتى في أيام العطل الرسمية.. هل تراني؟.. أنا أعمل أكثر من أي إنسان في هذا العالم.. تصور أنه لاوقت لدي لأذهب أنا وامرأتي إلى السينما أو المسرح، ثم إن كثيراً ما يأتي الصيف وينتهي دون أن أذهب معها مرة واحدة إلى البحر.. لماذا؟.. بسبب انشغالي في العمل.

استمر حديثهم بهذه الطريقة وبهذه اللهجة الحادة مدة نصف ساعة.. وبعد هذا الحديث بأسبوع، وفي إحدى ليالي الصيف، وبينما كان يجلس زاهي بك مع بعض الضيوف في ردهة منزله. سأله أحد

ضيوفه وكان صديقاً قديماً.

ـ ألا ترى انك تجهد نفسك كثيراً في العمل!..

ابتسم زاهي بك ولم يرد على كلام صديقه. لكن الحديث استمر بعد ذلك على هذا النمط.

ـ العمل الكثير يضر بالصحة يا زاهي بك..

ـ لا.. أنا لا أعمل إلى هذه الدرجة!..

ـ لا .. إنك تعمل أكثر من اللازم..

ـ أبداً يا عزيزتي.. حتى أنني لا أُعتبر من الناس الذين يحبون عملهم!..

ـ أمان.. ماذا تقول؟.. فأنا لم أصادف في حياتي، رجلاً مثلك يحب عمله.

ـ لا والله.. أنا لا أعمل كثيراً. وكل وقتي أمضيه هكذا!.

كان زاهي بك يتحدث مع صديقه وهو يتمطط. فأضاف صديقه قائلاً:

ـ على العموم يجب أن لاتجهد نفسك كثيراً في العمل. فقد تنفجر أحد الأوردة في الدماغ، فتصاب بنزيف دماغي لا قدر الله. ثم إن اهتمامك بالعمل أكثر من اللازم يجعلك تهمل زوجتك وأولادك وصحتك. وهذا لا يجوز، وليس من حقك!.. خاصة فيما يتعلق بالنساء، فإنهن لا يتحملن الإهمال أبداً!..

انتفض زاهي بك وقال لصديقه:

ـ ماذا تقول أنت؟.. أنا مثل (تنابلة السلطان)، ولايمكن أن تجد

إنسانا كسولاً مثلي في عمله.. أنا أكسل إنسان في هذه الدنيا.. لا تهمك المظاهر.. صحيح، يبدو علي أنني أعمل، لكنني في الحقيقة لا أقوم بأي عمل!.. كل ما أقوم به هو مظاهر هل فهمت.. أنا ملك الكسالى!..

وهكذا يا سيدي.. فإن ذاتكم العلية تستطيع أن تحكم فيما إذا كان زاهي بك نشيطاً في عمله أم كسولاً.. وذلك من خلال كلامه..

وفي أحد الأيام التي لا أنساها أبداً. زاره أحد أصدقائه وقال له:

ـ إنك تشرب كثيراً، ونهاية المشروب سيئة، وقد تصبح مدمناً في النهاية..

أجابه:

ـ أنا؟.. ماذا تقول يا عزيزي، أنا لم يلامس المشروب شفتيّ.. أنا لا أشرب سوى مرة كل أربعين سنة، أو عندما أكون مدعواً. أو إذا جاء ضيوف على العشاء.. وإذا شربت أشرب مجاملة، وأتصنع كذباً أنني أشرب، ثم إنني لا أعرف طعم العرق، أشعر بالغثيان عندما أشم رائحته، كما أنني لم أذق طعم الويسكي رغم تقدمي في السن.. في إحدى المرات شربت البيرة فتقيأت.

وفي يوم آخر جاءه أحد أصدقائه وقال له مازحاً:

ـ عيب على رجل يحتل مكانة مرموقة مثل مكانتك أن يحضر اجتماعاً ويقول أنني لا اشرب مشروباً!.. فالإنسان يجب أن يشرب، وأن يتحمل المشروب.. وأنت لن تموت إذا جاملت وشربت قدحاً.. أما أن تقول إنني لا اشرب فهذا يعتبر غلاظة منك.

ـ ماذا تقول؟.. أنا لا أشرب؟.. هل تظن ذلك؟.. إنك مخطئ فأنا

اشرب منذ أن كان عمري عشر سنوات، حتى أن المرحوم والدي كان يغمز لي الخبز المحمص في النبيذ ويطعمني إياه.. لذلك أعتبر نفسي أنني أشرب منذ ذلك الوقت. وفي الصباح ومنذ أن تتفتح عيناي أبدأ يومي بتناول المشروب هل فهمت؟.. لا يغرنّك عدم ظهور رائحة المشروب من فمي!.. ذلك أنني أشرب الفودكا فقط أثناء النهار.. أما في المساء فإذا لم أشرب العرق لن أستطيع النوم.. ثم أنني إذا عطشت أثناء نومي فأنا أشرب من الإبريق المملوء عرقاً وثلجاً الموضوع بجانب سريري؟.. هل أنا لا أشرب؟.. أنا لا أتوقف عن المشروب ولا أشعر بالفرح إلا عندما لا أقوى على الكلام.. عند ذلك فقط أتوقف عن شرب العرق.

وهكذا يا سيدي المحترم، فإن ذاتكم العلية تستطيع أن تحكم على زاهي بك من أقواله.

وفي أحد الأيام التي لا أنساها أبداً، وقبل ذهابه إلى الاجتماع، سمعت أحد أصدقائه يقول له في حضوري.

ـ اعذرني يا عزيزي زاهي بك. إنك تبالغ كثيراً في أحاديثك!..

ابتسم زاهي بك، بينما يتابع صديقه قائلاً:

ـ حتى أنك تزيف الأمور في بعض الأحيان.

أجابه زاهي بك:

ـ ليس إلى هذه الدرجة!..

تابع صديقه:

ـ إنك لاتتوقف عن الكذب، فلا لزوم له؟..

غضب زاهي بك وقال لصديقه:

ـ ماذا تقول؟.. أنا أتكلم كذباً.. أنا كذلك؟.. انظر إلى نفسك يا عزيزي. أنا لم أكذب في حياتي مرة واحدة.. هل تفهم.. لو علقوا مشنقتي فأنا لا أكذب حتى ولو كان في ذلك إنقاذ حياتي.. هل تعرف أنني أضعت الكثير لأنني لا أكذب، ولو أنني كذبت قليلاً، أو حتى تكلمت خطأ.. لكنت في حال أحسن من الآن بكثير.. لكنني في سبيل الصدق أنا على استعداد للتضحية بجميع المكاسب الشخصية..

وبعد عدة أيام كنا في زيارة زاهي بك في بيته قال له أحد الضيوف.

ـ لم أر مثلك إنساناً صادقاً.. إنك تقول الصدق ولو على حياتك.

لم يجب زاهي بك على هذا الكلام، تابع الرجل قائلاً:

ـ أعتقد أن كل هذا الصدق، وهذه الصراحة لا لزوم لها.. فأنت تبدأ حديثك بالقول: «مرحباً أيها القاضي الأعمى».. يجب أن لا يكون حديثك صريحاً لدرجة الوقاحة، لابأس من الكذب في بعض الأحيان، وليكن كذباً غير ضار.. لكنك لا يمكن أن تكذب حتى لو مت!..

ـ لا. ليس إلى هذه الدرجة، فأنا لست من الناس الصريحين الذين يقولون «مرحباً أيها القاضي الأعمى».. فأنا أكذب في بعض الأحيان، هل فهمت؟.. أستطيع أن أكذب ثمانين كذبه وأنا أقف على قدم واحدة بدون أن يشعر أحد بذلك.. أكذب، وإذا كذبت في اليوم أربعين كذبة فقط فإن مزاجي سوف يتعكر.. لا أكذب من اجل

مصلحتي بل من أجل مصالح الآخرين. أكذب وكأنني أشرب الماء.

وهكذا يا سيدي. تستطيعون الآن أن تحكموا على زاهي بك فيما إذا كان صادقاً أم لا وذلك من خلال حديثه.

في أحد الأيام جاء صديقه حمدي بك وطلب مني الخروج من الغرفة.

خرجت ولكنني كنت أسمع أحاديثهم وأنا واقف خلف الباب.. وعندما قال حمدي بك أن زاهي بك يستعمل نفوذه بشكل سيء.. من أجل الرشوة والمكاسب الشخصية. ضرب زاهي بك الطاولة بقبضة يده وصرخ غاضباً:

ـ أنا لم أقبض ولا عشرة قروش رشوة. أنا أعيش بشرفي وآكل من عرقي جبيني.

حتى الآن لم أكسب من الدولة أي قرش إلا بالحلال. لا أقبل أن أُطعم عائلتي لقمة واحدة من مال الحرام!..

كان حمدي بك لا يتوقف عن الصراخ في ذلك اليوم.

وبعد ذلك الحديث بمدة قالت له زوجته:

ـ نعم أنا أيضاً لا أحب أن يمد أحد يده إلى مال الحرام.. ولكنني لم أر شبيهاً لك..

فأنت لم تسمح لي بركوب سيارة الدولة حتى الآن ولو لمرة واحدة.. حتى أنك لا تستعمل الأوراق الرسمية في كتابة رسائلك.. فما لزوم كل هذه الاستقامة.. هل هذا ممكن؟..

فتحت الزوجة فمها وأطبقت عيناها.. لايمكن تحمل هذا الغباء.

ففي هذا الوقت يقال للشخص الشريف أمثالك مغفل.. هل فهمت؟.. الإنسان الشريف يعتبر مغفلاً!.. لماذا لا تنظر إلى أقرانك الموظفين. كيف يتمتع أفراد عائلاتهم بحياة ممتازة!.. لم تترك الزوجة شيئاً ولم تقله.

بناء عليه فإن كل ما سيقوله زاهي بك لزوجته دفاعاً عن النفس يعتبر مقبولاً.

ـ يا هانم..لا تدعيني أنفجر، فقد وصلت الأمور إلى أنفي.. هل تظنين أنني أتدبر أمور البيت من راتبي فقط.. إذا كنت تظنين ذلك فأنت مغفلة، فالراتب لا يكفي أجراً لمزين الشعر، ومصاريف الحفلات التي تقيمينها.. هل تظنين أنني «أقبل النملة ولا أخدش خصرها؟..» أنا لست كما تظنين.. أنظري إلي: أستطيع ابتلاع الجمل بما حمل دون أن يشعر أحد بي. هذه هي الشطارة، أن تفعلي ما تريدين دون أن يشعر بك أحداً!..

هذا هو زاهي بك يا سيدي. وتستطيع ذاتكم العلية أن تقرر فيما إذا كان زاهي بك لص أم إنسان شريف وذلك على ضوء كلامه..

وفي أحد الأيام التي لا أنساها أبداً جاء أحد زملاء المدرسة القدامى. لا أستطيع تذكّر اسمه، بدأ بالحديث مع زاهي بك وزوجته وابنته، ويقول بعض الأشياء التي لا يمكن السكوت عنها!.. غضب زاهي بك بشكل لم يسبق له مثيل وصرخ في وجه صديقه غاضباً وقال له:

ـ أنا أعيش بشرفي يا صديقي.. وأنا على استعداد أن أضحي بدمي من أجل المحافظة على الشرف. ولو أن أحداً نظر بطرف عينيه إلى

زوجتي أو ابنتي فأنا على استعداد لإحراق الأرض من تحته.

لم يتوقف عن الصراخ إلا بصعوبة!.. وقبل ستة أشهر من الآن، وفي أحد الأيام وبينما كان يتعاطى المشروب في المقهى، تواجد أحد الأشخاص وبدأ بامتداح زاهي بك بمعسول الكلام، ويقول عنه أنه إنسان شريف، ورب عائلة ممتاز، ورجل يحافظ على عائلته. لم يترك هذا الصديق كلمة من مفردات المديح إلا وقالها.. عند ذلك ردّ عليه زاهي بك قائلاً:

ـ دع عنك هذا الكلام.. أنا أعرف كل شيء، ولكنني أُغمض عيناي، كما اعرف ماتفعله زوجتي وابنتي، وكم هما غارقتان في الوحل. أنا رجل ذو قرون!..

كان كلما شرب أكثر، فتح فمه بالكلام أكثر.. تكلم عن زوجته وابنته بكلام أخجل من كتابته هنا..

وهكذا ياسيدي فإن زاهي بك إنسان مثل محسوبكم ومثل ذاتكم العلية ومثل أي إنسان آخر. والحكم متروك لذاتكم العالية.. أديت وظيفتي، وأنا أشعر بالسعادة، أقبل أياديكم وأقدّم اسمى آيات الاحترام والتقدير سيدي..

* * *

١٢ ـ الحلم المرعب

انتهى البث في إذاعة استانبول، معنى ذلك أننا ودعنا يوماً ودخلنا يوماً آخر وكان لزاماً علي أن أكتب في تلك الليلة، حكايتان، ومقال، وأعطي رأيي في استطلاع تقوم به إحدى المجلات. بالإضافة إلى أنني يجب أن أطلع على المجلات الثلاث التي وصلتني في البريد هذا اليوم، كما يجب أن أتصفح كتاباً.. أما أنا فلم استطع أن أنجز من هذه الأعمال سوى كتابة قصة واحدة أصابني الملل بعدها.

وضعت أمامي الأوراق لأكتب القصة الثانية، لكن لم يكن في ذهني أي موضوع، فتحت أحد دفاتري القديمة التي كنت أسجل فيه بعض مواضيع القصص التي كانت تخطر في ذهني. لعلي أجد موضوعاً للقصة. لكن لم يعجبني أي موضوع منها. ولم أتمكن من تحضير أي موضوع آخر، لأنني لم أجد هناك موضوعاً ناضجاً!.

أحسست بالجوع، وهذه هي حالي دوما، عندما لا أجد موضوعاً. فأنا إما أن أشعر بالجوع، أو أصمت، أو أذهب إلى المرحاض، لأجد مبرراً للهروب من جو العمل.

وكأنني إذا ملأت معدتي، فإن الإلهام سيأتي!.. خرجت إلى الصالون وكان الجميع نياماً ولا يسمع صوت لأحد. دخلت المطبخ.. الرز بارد من سيسخنه؟.. أكلت سردين، وبندورة، وجبنة، وبعدها جلست أمام الطاولة والورق أمامي، وضعت رأسي ضمن يداي، وبدأت أفكر. شعرت بنعاس شديد، في الوقت الذي كانت تراودني

أفكار كثيرة من أجل موضوع القصة. نظرت إلى الساعة وكانت تشير إلى الثالثة إلا عشر دقائق صباحاً. وهكذا فإنك إذا أكلت في وقت متأخر، لابد إلا أن يغلبك النعاس!..

الإنسان يعيش أثناء النوم، ولكن مافائدة هذا العيش؟.. لذة حلاوة العيش هو أن تعلم أنك تعيش، وأن تشعر بأنك تعيش!..

لدي صديق. يقضي عقوبة السجن. اعتاد هذا الصديق على رؤية الأحلام، يحلم بمجرد استسلامه للنوم، وكان يقول:

ـ أشعر بأن عمري يطول عندما أرى حلماً!..

كنا في شهر تشرين الأول، وكان من عادتي النوم عارياً، وأترك شباك غرفة النوم مفتوحاً. يراودني أثناءها شعور بأنني سوف أشاهد حلماً هذه الليلة!..

كان الجو لطيفاً، والتخمة تملأ معدتي، وبما أنني لم أنهي كتاباتي فقد أصبحت متوتراً، فمعنى ذلك أن الحلم الذي سأراه يمكن أن يكون مرعباً!..

داهمني النعاس، وأنا غارق في التفكير. شاهدت حلماً. جعله الله خيراً.

رأيت نفسي في بلاد أخرى. لم أكن أعرف ما هي هذه البلاد..إنها بلاد تشبه أميركا أو ألمانيا.. علماً بأنني لم أشاهد أميركا ولا ألمانيا من قبل. لكنني سمعت عن هذين البلدين من الذين زاروهما. رأيت نفسي في صالون كبير وجميل، سقفه عالي.

لاأعلم إذا كان هذا يحصل لكم، فأنا عندما أرى حلماً أعرف نفسي أنني أحلم.

كنت أتكلم وأنا في الحلم، إن هذا المكان يجب أن يكون (البيت الأبيض). هناك مجموعات من الناس متحملقين حول الطاولة في الصالون، لم استطع سؤال الموجودين «أين نحن» بشكل من الأشكال. لأنني جئت إلى هنا في مهمة رسمية، فإذا سألت أحدهم أين نحن سينظر إلي بسخرية ويقول «إنه لايعرف حتى اسم المكان الذي هو فيه».

كان الاجتماع دولياً، وأنا الوحيد الذي أمثل بلادي، أما باقي الموجودين فجميعهم لهم مكانتهم وأهميتهم الدولية، هندامهم مرتب بأطقمهم السوداء وياقاتهم الحمراء. قال أحدهم:

ـ أهلاً وسهلاً بك..

ـ أهلاً بكم.

ـ نريد أن نفهم منك أوضاع بلادكم!..

سيطر علي الخوف، ولكنني تمالكت نفسي ولن أخشى شيئاً. فمهما جرى فأنا في حلم» «حلم أو غير حلم.. ماذا لو سمع جوابي أحد من جماعتنا؟..» «إنه حلم» قلت لهم:

ـ تفضلوا أيها السادة اسألوا ما تريدون وأنا سأجيبكم بكل ما أعرفه.

سألني أحدهم:

ـ إن بلادكم من عداد الدول المتخلفة، أليس كذلك؟..

أحسست بأن شيئاً يطوف ويشد على عنقي.. ماذا أفعل يا ربي.. ماذا أقول؟.. لو قلت لهم «نعم إن بلادي متخلفة» «أكون قد عرّفت

عن بلادي بشكل سيء أمام الأجانب. وعقوبة هذا الكلام كبيرة عندنا في القانون الجزائي. وإذا قلت كلا بلادي ليست متخلفة بل متقدمة، أكون قد كذبت.. ماذا يجب علي أن أقول؟.. لا لن أقول الصدق وأرتكب جرماً، ولن أعرف عن بلادي بشكل سيء. لذلك سأكذب عليه، وهذا أفضل، فالكذب لايعاقب عليه القانون!..

ـ قال الرجل الذي كان يراقبني وأنا صامت:

ـ لماذا لاتقول شيئاً؟.. قلت:

ـ عفواً.. أنا لم افهم سؤالكم.

ـ بلادكم متخلفة أليس كذلك؟

صرخت قائلاً:

ـ من قال هذا الكلام؟.. إن من قال هذا الكلام يريد تزييف الحقائق.

ـ الجميع يقولون ذلك، ونحن نعرف ذلك أيضاً..

ـ أيها السادة المحترمون، لا تنسوا أن أعداءنا كثر، وهم لا يحبوننا، لذلك فإنهم يلفقون مثل هذه الدعايات المغرضة ضدنا!..

دُهش الجميع لهذا التوضيح وفتحوا أفواههم على مصاريعها وقالوا:

ـ يا!!..

ثم قال أحدهم:

ـ معنى ذلك أن المعلومات التي لدينا غير صحيحة!..

ـ نعم إنها غلط. وأهدافها استعمارية محضة!..

ثم قال آخر:

ـ فهمت الآن!.. إنكم شعب لديه عزة نفس، وتغضبون عندما نصف بلادكم أنها «بلاد متخلفة». لذلك سوف نستبدل هذا التعبير بتعبير آخر هو «الدول النامية» ما رأيك؟..

ـ هذا لايجوز، نحن لسنا دولاً نامية، بل نحن دول متقدمة، ومتقدمة جداً..

دهش الجميع من ردة فعلي، وبدأوا يتهامسون فيما بينهم.

ـ عندكم مدناً بدون كهرباء؟..

لو قلت نعم أكون قد عرفت عن بلادي بشكل سيء أمام الأجانب!..

ـ أبداً فالكهرباء موجودة في جميع المدن والأقضية وحتى القرى!..

ـ حسناً.. حسناً.. جيد جداً..

ثم سأل شخص آخر:

ـ يقولون أن الكهرباء عندكم غالية.. بكم سعر الكيلو واط؟

ـ هل تسألون عن الكهرباء؟؟. يا سيدي كيلو واط الكهرباء بدون ثمن، بل مجانية، هل تريدوننا أن ندفع نقوداً من أجل الكهرباء أيضاً!..

ـ جميل جداً.. جميل جداً..

كنت فرحاً جداً لأنني استطعت أن أعرف عن بلادي بشكل جيد أمام الأجانب، وهذه الأقوال لابد وأن تنشر في الجرائد، وسيفرح جماعتنا بهذه الدعاية الجيدة!..

ـ أجور البيوت مرتفعة جداً، ولديكم أزمة سكن، كما أن أصحاب

الدخل المتوسط إذا لم يدفعوا نصف راتبهم الشهري من أجل الإيجار فإنهم لن يتمكنوا من إيجاد بيت يأويهم أليس كذلك؟..

هناك نداء في داخلي يحضني على قول الحقيقية. فأجيب على النداء «إذا قلت الحقيقة سوف أتبهدل؟..» فيرد النداء الداخلي «إنك تحلم.. وهم لا يستطيعون أن يشاهدوا الحلم الذي تراه أنت، ولايمكن أن يسمعوا ما تقوله أيضاً.. فهم يشاهدون أحلاماً أخرى، لذلك قل الصدق ولو في الحلم..».

كنت أتعرق كثيراً، مسحت العرق من على جبيني وضحكت..

ـ هه . هه.. هه.. معنى ذلك: أنهم يعرّفون بلادنا بهذه الطريقة!.. سوف لن أقول شيئاً، ولكن أدعو الله أن تُبلى عيون أعدائنا بالعمى في أقرب ساعة.. ثم أن المواطن عندنا شأنه شأن أي مواطن في البلاد المتمدنة فهو لا يدفع سوى عشرة بالمائة من دخله!..

ـ وماذا عن الموظفين؟..

ـ الموظفون!.. إن الموظفين يسكنون عادة في بيوت واسعة لأن عائلاتهم غالباً ما تكون كبيرة!.. فالبيوت رخيصة في بلادنا لدرجة أننا لا نشتهي الجلوس في البيت!..

ـ علمنا أن أصحاب البيوت لا يقومون بتأجير بيوتهم إلى عائلات لديها أطفال!..

ـ ته، ته، ته. من أشاع هذه الافتراءات؟ المستأجر لايرى صورة صاحب البيت أصلاً. لأن لدينا هيئة للإيجار في جميع البلديات، ونحن نذهب إلى تلك الهيئة عندما نريد أن تستأجر بيتاً. أقول لهم مثلاً «أريد بيتاً يحتوي على خمس غرف، بشرط أن يكون لون مغطس

الحمام أزرق، ولا أقبل بأن يكون لونه زهري، لأن زوجتي تنزعج من هذا اللون!..».

ـ لاشك بأنك تعرّف على بلدك بشكل ممتاز!..

ـ هناك صعوبة في المعيشة، فأصحاب الدخول المحدودة يعانون كثيراً من تلك الصعوبات، كما أن عدد متوسطي الدخل يتضاءل يوماً بعد يوم!..

ـ شوف شوف شوف.. ماذا يلفقون عنّا!..

أيها الأصدقاء المحترمون. أريد أن أقول لكم هذه الحقيقة قبل كل شيء. إننا لا نسمع عن صعوبة في المعيشة لدى مواطنينا سوى في الصحف الأجنبية. وفي الحقيقة نحن ليس لدينا صعوبات في هذا المجال مطلقاً، أو صعوبات في أي مجال آخر، فأرجو الله أن يجنبنا جميع الصعوبات، أما بالنسبة لمتوسطي الدخل، فإنهم ما شاء الله بحالة جيدة، كلهم مرتاحون، وهم يهدونكم سلامهم الخاص. وقد طلبوا مني أن أقول لكم قبل مجيئي إلى هنا.. انتبهوا فهناك من يلفق الأكاذيب عن لسانهم.

ـ علمنا أن نسبة البطالة مرتفعة عندكم وأن شروط المعيشة أصبحت صعبة وخاصة بالنسبة للعمال لأنهم يتقاضون أجوراً متدنية دون الخط الأحمر؟

صرخت في وجوههم وقلت:

ـ هل تريدون تصديق المخربين أعداء بلدنا، أم تصدقوني أنا؟..

ـ من المؤكد أننا نريد تصديقك أنت..

ـ إذن اسمعوا.. بما أنكم تتحدثون عن عمالنا، فإليكم التوضيح: إن عمالنا هؤلاء يعيشون بشكل ممتاز هل فهمتم؟، وهم لم يشتكوا في يوم من الأيام من أي شيء، ثم أن الأجر اليومي الذي يتقاضاه عاملنا، لا يتقاضاه أي عامل آخر، واكثر من ذلك أقول لكم يا سيدي إن ما يوفره عاملنا من الأكل والشرب يومياً يكفيه لأن ينشئ مصنعاً في السنة، لكنه لا ينشى. لأن عاملنا عينه شبعانة!..

ـ واي. واي. ما هذه البلاد؟..

لو أن وكالة أنباء الأناضول. تذيع حديثي هذا مع الأجانب. ستقول، كيف عرفت كل هذا عن بلادنا. وعندها لن يضيع الكذب والنفاق التي قمت بها على الأجانب سدى.

ـ كيف حال التعليم؟ علمنا أن نسبة الأمية عندكم هي ثمانون بالمائة!..

ـ جك. جك. جك. إنهم يكذبون.. ولو كان للكذب ذنب فهم المذنبون. إن المتعلمين الذين يجيدون القراءة والكتابة في بلادنا كثيرون لدرجة أن معظمهم ملّ القراءة والكتابة، طبعاً هذه حال الإنسان عندما تتراكم الأمور عليه.

وإذا أردت البحث عن شخص لا يعرف القراءة والكتابة فلن تجده ولو كنت تحتاجه من اجل العلاج. كذلك نسبة الذين يقرأون ويكتبون عندنا تتجاوز ثلاثمائة بالمائة، لأن معرفة كل شخص عندنا بالقراءة والكتابة تعادل ما يعرفه ثلاثة أشخاص، حتى أساتذة الجامعات والصحفيين، والكتاب عندنا ـ بالكاد يعرفون القراءة أو الكتابة، حتى لو لم يكن لدينا الكثير ممن يجيدون القراءة والكتابة بآن واحد، لكن

القراء والكتاب كثيرون، وفي بلادنا مدارس كثيرة لدرجة أن الدولة تضطر لاستملاك المدارس عند فتح الطرقات، أما بالنسبة للمعلمين فعددهم لا يحصى إذا لوحت بيديك لسوف تصطدم بخمسين معلم، بحيث مهما وجهنا إليهم إهانات وضغوط، وسحقناهم، ورميناهم، فلا يمكن القضاء عليهم واجتثاث جذورهم!..

ـ يقال أنكم أخذتم من أميركا براكات خشبية جاهزة لتستعملونها كمدارس؟

ـ هي.. هي.. هذا مزاح، لأننا لا نريد أن يطلّع أحد على قوتنا لذلك نقول أنه ليس لدينا مدارس.

قفز أحدهم وهبّ واقفاً:

ـ هذا غير صحيح، فنحن نقرأ دوماً ما تكتبه أنت، ونقرأ مقالاتك اليومية التي تكتبها في الجريدة، وكلها تدور حول نقص عدد المدارس، والمعلمين!..

ضحكت..

ـ وأنتم صدقتم هذا الكلام، أليس كذلك؟ أنا أكتب ذلك لأنني من المعارضة، شعبنا معارض لآخر درجة. لذا فإنني إذا كتبت موضوعاً لا أكتبه بصيغته الحقيقية بل بالصورة التي تحبها المعارضة، فنقول مثلاً إن المدارس غير موجودة لكي تباع الصحيفة!..

هذا هو حال إعلامنا الداخلي، أما إعلامنا الخارجي فلا خوف عليه!..

الطرقات عندكم غير كافية، والموجود منها وضعه سيء؟..

تضايقت كثيراً، ثم وقفت على قدماي وقلت لهم:

- كفى.. إنني ذاهب!..

- إلى أين، أنت لا تستطيع أن تذهب، لأنك تحلم!..

معنى ذلك أنهم يعرفون أنني في الحلم!..

- دعوني أذهب!..

- إلى أين؟..

- إلى بلدي..

سرت نحو الباب، فنهضوا جميعاً وساروا باتجاهي، وحشروني في الزاوية.

- اتركوني!..

- أنت في الحلم ولا تستطيع الذهاب إلى أي مكان!..

لابد أنكم جميعاً قد رأيتم أحلاماً مرعبة!.. فإذا أردتم الهروب لا تستطيعون لأن أرجلكم لا تتحرك، تريدون أن تصرخوا فلا يخرج صوتكم. هذا ما جرى معي لذلك بقيت محشوراً في الزاوية.

عندها قال أحدهم:

- لازال عندنا سؤال واحد. هل لديكم حريات أم لا؟..

كنت أقول في نفسي لا تخف كن جريئاً، إنه حلم على أية حال. لذلك لا تخف أبداً صحيح أنني كنت أقول ذلك، لكن عدم الخوف ليس بيدي. وفي نفس الوقت كنت أقول «إن شاء الله. أكون في حلم».

بدأوا يصرخون

ـ تكلم.. قل.. هل لديكم حريات أم لا؟..

أخيراً سمعوا صوتي وكان صوتاً متقطعاً..

ـ موجودة.. موجودة بكثرة.. مليان عندنا حريات..

ـ هل لديكم حريات؟..

ـ عن أي الحريات تسأل؟..

ـ هل لديكم حرية صحافة؟..

ـ طبعاً يا أخي موجود.. كل شيء موجود..لدينا حريات من جميع الأنواع، ولدينا حرية صحافة، لدينا منها الكثير.. اتركوني!..

ـ كنت أقول في نفسي: «لابد أن يأتي الصباح، وينتهي هذا الحلم المرعب.. سيأتي الصباح وسوف استيقظ من نومي.

ـ هل لديكم حرية صحافة؟

ـ ألم أقل لكم أنه لدينا.. نعم لدينا.

ـ حسناً كيف يمكن أن يكون لديكم حرية صحافة، ولا يزال قانون المطبوعات القديم ساري المفعول؟..

لم يعد أمامي سبيل للنجاة سوى الطيران.. فكثيراً ما يطير الناس في أحلامهم فتحت ذراعاي كالأجنحة، لكنني أحسست أنني ثقيل لم أقو على رفع قدماي المعلقتان في الأرض. لو ان قدماي ترتفعان عن الأرض، لكنت حلقت في الفضاء كالعصافير. لم استطع الطيران، ربما كان سبب ذلك الشراهة في تناول الطعام قبل النوم؟.. حاولت كثيراً وضغطت على نفسي لكنني لم ارتفع في الهواء.. لو لم أكن ملأت معدتي قبل النوم لحلقت الآن كالعصافير!..

ـ تكلم هل مازال قانون المطبوعات القديم ساري المفعول؟..

ـ لماذا تنظرون إلى قانون المطبوعات القديم وإلى أنه مازال موجوداً!.. إنه موجود ولكن لا يطبق!.. نحن نحتفظ في بلادنا بالمدافع التي استعملها محمد الفاتح، عندما فتح استانبول ولكننا لانستعملها، فهل علينا أن نتخلص منها!.. نحن لا نريد أن نتخلص من القوانين، غير ديموقراطية. لأننا نريد أن نتذكر هذه القوانين دوماً لنستخلص منها العبر، ولنتذكر كم تحملنا بسببها، ثم أن حرية الصحافة لدينا كثيرة وكباقي الحريات لدرجة أننا بدأنا نحتار ماذا سنعمل بكل هذه الحرية!..

ـ الوضع الاقتصادي سيء جداً. ميزانيتكم في عجز.. ماقولك؟..

ـ أقول الله.. ماذا تريدونني أن أقول؟..

كنت اسبح في عرقي.

صحت قائلاً ألن استيقظ؟ ألايكفيني أحلاماً؟..

ـ إذا لم تتكلم الصدق. لن تستيقظ من هذا الحلم أبداً.

إذا تكلمت الصدق. فذلك دعاية مضادة لبلادي. ياربي ماهذا البلاء؟..

ـ إن وضعنا الاقتصادي ليس كما تعرفون، إنه مزدهر، والميزانية متوازنة.

كنت سأستمر بالكلام لكنهم قاطعوني قائلين.

ـ يا .. مادام الأمر كما تقول، فمعنى ذلك أنكم لستم بحاجة إلى مساعدات، لقد دعوناك لتحدثنا بصدق، ولنفهم منك إذا كنتم

KMH

بحاجة إلى مساعدات ولنفتح لكم حسابات القروض ونعطيكم الأموال اللازمة. ولكن بما أن أموركم على ما يرام كما تقول، فمعنى ذلك أنكم لستم بحاجة إلى مساعداتنا!.. هيا تفضل الآن مع السلامة..

عند ذلك عاد إليّ صوابي فصرخت:

ـ لماذا؟.

معنى ذلك أنني جئت إلى هنا ممثلاً عن بلادي من أجل المساعدات المالية!..

ـ حسناً لماذا لم تقولوا لي ذلك منذ البداية؟.. كنت أعرف كيف أتحدث.

ـ هيا مع السلامة.

بدأت أبكي خوفاً، وكيف أنني أضعت فرصة أمام بلدي من أجل الحصول على مساعدات مالية، في الوقت الذي كنت أستطيع فيه أن أضعهم جميعاً في القفص كما أنني أضعت فرصة «عدم تعريف الأجانب على البلاد بشكل سيء».

استيقظت والوقت مازال ليلاً.

أضأت النور. وجلست أمام الطاولة. لقد بكيت حقيقة في الحلم، مسحت دموعي، وبدأت فوراً في كتابة هذا الحلم.. متى سيأتي الصباح. حقاً لقد أمضيت ليلة من أطول ليالي عمري..

* * *

١٣ ـ قنبلة النوترون ستنقذ المدنية

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والثانية، ومعرفة النتائج المخيفة التي أفرزتها تلك الحروب. تم استخلاص الكثير من العبر والدروس، فقد رأينا كيف دمرّت تلك الحروب كالأعمال المدنّية الكبيرة، والنصب التذكارية التاريخية، والمعابد الكبيرة، والجسور، والمتاحف التي تعطي المدن الكثير من الغرور والكبرياء. والتقدم العلمي بأوجه ووسائل إنتاج المصانع، والمدارس والجامعات، والمكتبات التي تحافظ على الوثائق التاريخية، والمدن الكبيرة التي تم حرقها وتدميرها والقضاء عليها! هذه الأشياء التي دمرّت المدينة

لم يكن من السهل إعادة الأعمال المدنية التي تهدمت في الحربين العالميتين وترميمها لعقود كما كانت عليه. حيث بدا الأمر شاقاً للغاية وأكثر تكلفة من بنائها من جديدّ!..

وهكذا بدأت البحوث العلمية المكثفة من اجل تلافي هذا الموضوع!.. كان الهدف من تلك البحوث إيجاد سلاح فتاك يستطيع تدمير الكائنات الحية والقضاء عليها، دون التسبب بأضراراً للمادة الصلبة المكونة للعمران، لأن لا أحد لديه عداوة مع هذه العناصر، ثم إن الأعمال التاريخية لم تكن ممكنة لولا هؤلاء المساكين، الحجر، والحديد، والأخشاب، الذين لادخل لهم في جريمة المدينة ليتم تدميرهم وحرقهم والقضاء عليهم!.. ونتيجة لتلك الأبحاث فقد جاء اختراع قنبلة النوترون. كان اختراعاً ناجحاً جداً، حيث تبين أن قنبلة

النوترون تحافظ على المدنية وتنقذها، وهي سلاح سيحقق أكبر معجزة في هذا العصر الذي نعيش فيه!..

هل تستطيعون أن تفكروا أو تتصوروا، كيف تنفذ القنبلة بعد انفجارها إلى جميع الأعمال المدنية وتتسرب إلى جميع البروزات والتداخلات، وتقضي على جميع الكائنات الحية الموجودة في هذه المباني، ولكنها لن تصيب حتى طلائها بأي أذى، حتى الأبواب والنوافذ، والسجاد لن يتأثر بها ولا دانتيل البرادي، أو الإطارات المذهبة، ولا ورق الجدران ولا (ولا دهان الموبيليا). حتى أن زجاج النوافذ لن يتكسر!.. فهل يمكن التفكير بسلاح أكثر مدنية و إنسانية من هذا السلاح. هكذا بعد حروب كهذه سوف نستفيد نحن الذين بقينا أحياء بعد الحرب، من المدن الخالية من السكان والتي لم تتعرض للدمار، من العمارات التي لا يوجد فيها بشر، من الموبيليا التي بقيت سليمة ولم تمس بأذى، من البواخر التي تقف في المينا خالية من البشر، ومن المتاحف والمدارس والجامعات، والمكتبات الخالية، سيبقى هناك عملية تنظيف صغيرة تقع على عاتق من تبقى من هؤلاء الناس، الذين سيكونون هم أصحاب هذه المدنية، ألا وهي التخلص من الجثث المتعفنة ومخلفات العظام والرماد.. بجمع النفايات التي بقيت من الإنسان والتخلص منها. ليبقى عالمنا جميلاً وتستمر المدنية فيه أيضاً!..

البعض قال عن قنبلة النيوترون أنها أكبر معجزة في هذا العصر، لأنها ستنقذ المدنية، لكنهم وقفوا ضد استعمالها لأن من شأنها القضاء على الإنسان..وقد نسوا شيئاً مهماً جداً! فما حاجتنا لقنبلة لا تقتل

الإنسان ولا تخرب المباني، وماذا سنستفيد منها!.. ثم إنهم لم يستطيعوا التمييز بين الغرض من هذه القنبلة، والقنابل الجرثومية التي يضعون فيها المبيدات، وأن قنبلة النوترون هي غير القنبلة الجرثومية!..

لقد ذهب ضحية الحربين العالميتين الأولى والثانية ما يقارب ستين مليون إنسان. لو لم يمت هؤلاء وظلوا يتوالدون ويتكاثرون خلال الثلاثين سنة الماضية. لاشك فإن عددهم سيصل إلى المائتي مليون، وسيضاف هذا العدد إلى عدد سكان الأرض التي بدأت تضيق علينا منذ الآن. فكيف ستكون الحال فيما إذا أضيف مائتي مليون إنسان آخر؟.. لابد أن الحياة ستصبح مستحيلة في هذا العالم!..

إننا نعاني أزمات جمة وفي جميع المجالات ولكننا لانعاني أبداً من أزمة في عدد البشر، على العكس فنحن نشعر دوماً أن عدد البشر أكثر من اللازم!..

وكما تعلمون، فعندما يريدون أن يحافظوا عالمياً على أسعار المنتجات الزراعية التي تُنتج بكثرة: كالحبوب والبطاطا، فهم إما أن يلقونها في البحر، أو يحرقونها. لهذا السبب يقومون بتنظيم الخطط الزراعية، وقد يتطلب الأمر في بعض الأحيان أن يطلب إلى بعض المزارعين عدم زراعة القمح مثلاً في ذلك العام مقابل تعويض يعادل ما يمكن أن يربحوه فيما لو زرعوا قمحاً، وكما يفعلون في الأسواق العالمية من أجل المحافظة على مستويات الأسعار، فيقومون بالتخلص من فائض الحبوب والبطاطا والقهوة، وباقي المنتجات الزراعية، ومن أجل القضاء على فائض البشر فإنهم يقومون بنشر الدعايات المغرضة، ويفتعلون الحروب ليحافظوا على مستوى متوازن وطبيعي لعدد سكان

العالم، وهذا أفضل وأعقل حل من أجل الحفاظ على التوازن!.. إنه قانون مالتوس.

في هذه الأيام تقوم جميع دول العالم بحملات لتحديد النسل. حتى أنهم عندما يخططون للتنمية فإنهم يأخذون في الحسبان عملية تزايد عدد السكان. ولتحديد عملية التزايد يلجأون أحياناً إلى تدابير من شأنها لجم الرغبات الجنسية، وذلك باختراع موانع الحمل للنساء والعقم للرجال.. وفي مثل هذه الظروف فإن تصوير ما تقوم به قنبلة النيوترون من قتل البشر والحفاظ على الحديد والخشب، والبيتون والقماش والدانتيل والمخمل بدون أن تمسها بأذى بأنه جريمة لا تغتفر فمعنى ذلك أنهم لم يفهموا معنى المدنية أبداً!.

والإنسان عبارة عن شيء مكون من مجموعة أرقام!.. رقم الياقة، الحذاء، والقبعة، التلفون، التأمين، البيت، الغاز، والكهرباء، عداد الماء، رقم الهوية، وجواز السفر- ورقم الأوتوبيس الذي ينقله لمكان عمله واستناداً لما تقدم سوف نقيس الموضوع بالأرقام.

لقد مات في الحرب العالمية الأولى والثانية ستين مليون من البشر. ولو كانت المدنية تحتاج اليوم إلى هؤلاء الستين مليون لكانت البشرية ستحتاج إلى قمح اكثر، ويتوجب عليها زراعة القمح بمساحات أوسع. من أجل رفد العالم بستين مليون إنسان، يجب أن نقوم بالتخطيط السكاني اللازم. ثم إن إنتاج الطفل أسهل بكثير من إنشاء صرح حضاري إضافة إلى المتعة الجنسية وهذا شيء معروف لدى كل امرأة ورجل عنده تجربة!..

عندما يُهدم متحف، يسارعون فوراً إلى إنشاء متحف جديد.. هل

تقولون أن ستين مليون ماتوا؟.. بإمكاننا التعويض عن هؤلاء الستين مليون بأناس أجمل وأفضل أناس جدد يلمعون!..

لانفهم لماذا يريد هؤلاء الناس الوقوف ضد قنبلة النيوترون. هل يريدون أن تقضي القنبلة هذه إضافة إلى ما تقتله من البشر، على الخضرة، والمتاحف، والمختبرات العلمية، والأضرحة، والمعابد، والمدارس، والجامعات، والمكتبات، والمصانع.

إن الذين يقفون ضد قنبلة النوترون يجب أن يدركوا هذه الحقيقة.

الناس الذين سيموتون بمجرد انفجار قنبلة النوترون لن نكون بأي حال نحن أصحاب المدنية لأننا لن نصبح أناس متمدنون.

«مجلة الفنون ٦ آذار ١٩٧٨».

الانتقاد والهجوم من العيار الثقيل الذي تعرّضتُ له من جراء كتابة هذا المقال الذي قرأتموه في الصفحات السابقة بعنوان (قنبلة النيوترون ستنقذ المدنية).

كما حصل هرج ومرج كثير لا علاقة له في معظم الأحيان في ذلك المقال، وفي بعض الدول اعتبروني عدواً للسلام بسبب هذه المقالة واعتبروني مؤيداً لهذه القنبلة، فماذا كانت النتيجة؟..

لقد جوبهت مقالتي هذه باهتمام بالغ في كل من الاتحاد السوفياتي السابق وبلغاريا، والمانيا الاتحادية ونشرت في أكثر الصحف مبيعاً.

واسمحوا لي في هذا الفصل بعض الجدل الذي دار حول هذا الموضوع.

مدنيةٌ بلا إنسان.

كان ماراً من أمام بيتي فسقط أرضاً ولم يتحرك!.. لقد مات. تجمع الناس حول رأسه.. ولكن الذين كانوا يقفون بعيداً ويتفرجون زاد عددهم.. مرت بضع دقائق.. تراكض الأطفال، وتنادت النسوة من الشبابيك.. اتصلت هاتفياً بالشرطة، لم يجبني أحد.. رن جرس التلفون طويلاً.. أيضاً لا أحد يجيب..

تلك هي حال هذه المدينة الكبيرة.. فالإنسان يسقط ميتاً فيها ولا نعرف ماذا نفعل؟.. كانت وسائط النقل تمر بدون أن تقف، أو تتوقف لبضع لحظات لتعرف ماذا يحدث ثم تتابع سيرها.. بعد ذلك جاء فاعل خير فأسعف هذا الميت بسيارته..

كان شاباً، يرتدي ثياباً بلون بني، فتشوا جيوبه فلم يعثروا على شيء يستطيعون من خلاله التعرف على شخصه، أو عنوانه، ومكان توجهه، ومن أين أتى؟.. لا أحد يعرف.. وربما لن يأتي أحد يسأل عنه.. إنه غريب، جاء إلى المدينة ليبحث عن لقمة عيشه فداهمه القدر وسقط ميتاً على رصيف تلك العمارات الضخمة المتلاصقة. لابد أن لديه بعيداً من هنا أحباء وأقرباء، زوجة وأولاد، أم، أب، ينتظرون عودته وسوف يطول انتظارهم، وبعدها سوف يطويه النسيان.. وهكذا يمكن أن يمحى إنسان من على وجه الأرض..

يقولون أن الإنسان في هذه الأيام مخلوق «لاقيمة له أبداً» قاسوا وفصلّوا وقارنوا الإنسان بالمادة فوجدوا أنه شيء لا قيمة له. فقيمته تساوي بضع مئات من الليرات فقط. وهو عبارة عن ماء وأملاح، وأشياء أخرى!.. بحثت عن مقال لي كنت كتبته عن «قيمة الإنسان» فوجدته في أحد الكتب الأدبية، كان عنوان المقال على الشكل التالي

«يأتون رخيصاً، يرحلون رخيصاً»: هؤلاء الناس يأتون إلى هذه الدنيا، ثم يرحلون وهذا مصير المليونير والملياردير أيضاً. لكن قيمة الإنسان قد تتغير حسب المجتمع الذي يعيش فيه. ففي عالم تعداده يتجاوز المليارين لن تجد أكثر من ربع مليار إنسان لهم قيمة، وفراقهم صعب، والناس الذين يعيشون في المجتمعات المتمدنة، يتمتعون بنفس الحقوق وينظر إليهم نظرة واحدة أيضاً. وهم لا يجوعون، ولا يتشردون، ولا يشعرون بالخوف، يعيشون كالبشر.. ولكن هناك أكثر من مليار إنسان يعيشون متخلفين جائعين، رغم أنهم يمنحون كل أسباب العيش لغيرهم، ورغم عطائهم المتزايد، لكنهم يظلوا مشردين جائعين...

لدي قارئين أودعني كل منهم رسالة بعد أن قصّوا تلك الصفحة من المجلة وأرسلوها لي..وكنت قرأت سابقاً ما أرسلوه لي لأن المجلة كانت فوق طاولتي منذ عدة أيام. ظننت في البداية أن المقال يندرج ضمن باب المزاح والضحك، واستغربت وجود مثل هذا المقال الذي يضحك بسوداوية في مجلة «الفنون»، لم اكن أتصور أبداً أن كاتباً قوياً ومتمكناً من نفسه يمكن ان ينزلق ويقع في مثل هذا المأزق فيحول هذا الشيء المضحك إلى شيء جدي للغاية. كان الموضوع هو قنبلة النوترون. هذه القنبلة التي تقوم بعمل نظيف!.. فهي تحافظ على المنشآت والأشياء، والتقنية التي جاءت بها المدنية، أما الأحياء فإنها تقضي على جذورهم وتمحوهم من الوجود. إنها مدنية راقية، ومعجزة علمية يفتخر بها صديقنا عزيز نيسين، وهو يرى ان موت أكثر من ثلاثين مليون إنسان في الحرب العالمية الثانية أمر جيد، وإلا فإن هؤلاء الثلاثين مليون إنسان، كانوا سيتجاوزون المائة مليون، وسوف يزداد عدد سكان العالم بهذا المقدار أيضاً.. هذا ما يقوله عزيز نيسين في

مقالة «**قنبلة النيوترون ستنقذ المدنية**» **فأي مدنية هي تلك التي ستنقذها هذه القنبلة؟**.. وهل الأشياء التي ستنقذها هي «المدنية»؟. أليس من الأنسب أن يعطى لها إسماً آخر؟.. إنها تقضي على الإنسان وتبقي على الأشياء الأخرى، والسيارات، ولا أدري على ماذا تبقي أيضاً، لعلها تبقي على المفاهيم، والفكر، والتفكير، والفن!..

أحببت كلمة قالها جورج دوهاميل في كتابه «قصص مدنية» وهو يتحدث عن المدنية فيقول **يجب أن تكون «المدنية في قلب الإنسان قبل كل شيء. وإذا لم تكن هناك فهي غير موجودة أبداً»**. من أوجد قنبلة النوترون هو التقنية والتقنية بمفردها ليست المدنية. يجب أن لا تكون «التقنية» **عدوة الإنسان والإنسانية بآن واحد!**.. «عندما يُهدم متحف نستطيع أن نقيم عوضاً عنه متحفاً آخر، وإذا مات ثلاثون مليون إنسان فيمكن أن نصنع عوضاً عنهم من جديد أناس حديثون، يلمعون، لا افهم ماذا يريد هؤلاء الناس الذين يقفون ضد قنبلة النوترون، هل يريدون أن تقضي قنبلة النوترون بالإضافة إلى الناس على الحضارة.. المتاحف. والمختبرات العلمية الأضرحة المعابد، الجامعات، المكتبات؟..»

يقول سارتر في إحدى كتاباته «**إنني أتمسك بحياة الإنسان أكثر من تمسكي بحياة «كارتر كاندرال» لأننا إذا ضحينا بأنفسنا من أجل كاندرال فإنه لن يستطيع أن يصنع أناساً آخرين عوضاً عنا.. أما الناس فبأمكانهم أن يصنعوا كاندرال من جديد في كل وقت**».

وقبل أن يقول سارتر هذا الكلام بعشرين سنة على الأقل، قال الكاتب سعيد فائق في قصته «**الأزمة**» «**هل قيمة الإنسان أكبر، أم**

جامع السليمانية إن جامع السليمانية هو إنسان بالنسبة لي».. أما سارتر فيرى أن حياة الإنسان هي أهم من كاندرال وأهم من جامع السليمانية الذي يتحدث عنه سعيد فائق.

أما «المدنيّة» التي صنعت قنبلة النوترون، فستقضي على الإنسان، وتبقي على الأعمال والأشياء، فأيهما يجب أن نفضل، وأيهما يجب أن نختار. الإنسانية، أم المدنية؟.. أعتقد أن الاختيار ليس صعباً. ولابد أن نختار «الإنسانية» لأنها أفضل الأشياء.

ما أزعجني هو وقوف عزيز نيسين بجانب الأشياء. وعدم وقوفه بجانب الإنسان. ثم كيف يقوم كاتب قوي بالدفاع عن مدنية تخلو من الإنسان؟.. ولكن أكثر ما أدهشني هو قوله للناس الذين سيموتون بقنبلة النوترون «لن نكون بأي حال نحن أصحاب المدنية لأننا لن نصبح أناساً متمدنين». أما باقي الناس فسوف يموتون ويرحلون.. وسوف نستمر نحن «الناس المتمدنون» في العيش ضمن تقنية عالمنا المتمدن الذي لم يخرب ولم يفنى!.. هل هذا ما تريدونه؟.. حسناً.. ولكن هل ستعتبرنا القوى المتمدنة التي سوف تستخدم قنبلة النوترون أننا بشر «متمدنون»؟.. لا أظن ذلك!..

جريدة الجمهورية ١٦ آذار ١٩٧٨

حاسة الضحك

قنبلة النوترون ستنقذ المدنية

يقال أنه في الحرب العالمية الثانية، كان المقال الذي ربح الموقف أكثر من القنبلة الذرية هو «روح المرح» أو كما نقول عنه في لغتنا حاسة الضحك.

هناك صورة نشرت في الصحف اليومية أثناء الحرب العالمية الثانية. ومن هذه الصور، واحدة لـ هتلر العابس القاسي الذي لا يعرف الضحك. وصورة تشرشل العابس دائماً، حاسة الضحك لم تكن موجودة في هذه الوجوه الصارمة، لقد احترقت وجوههم الغاضبة كصخرة من حمم قذفتها البراكين.

الإحساس بالضحك: ليس القهقهة العالية، أو أن تضحك بلا شعور مثل ماكينة الضحك. بل يجب أن تفهم الضحك، وتعرفه، وتتذوقه..

نعم يجب أن تعرف الضحك، وهذا شيء مهم، انظر حولك سترى أن جميع الذين يضحكون، غالبيتهم يضحك بدون أن يعرف الضحك..

تكلمت كثيراً وكتبت كثيراً وأقول مرة ثانية: الضحك شيء جدي وعمل صعب جداً، ولكن أن تفهم الضحك وتتذوقه، فأصعب بكثير من صنع الضحكات أو إيجادها.

جميعنا شاهد في حياته كثيراً من البشر ليس لديهم إحساس بالضحك، حتى ولو كانوا يضحكون، قبل خمسين عاماً عندما كنا طلاباً في الثانوية، كان أحد الأساتذة الذين لديهم إحساس بالضحك، يطلق عليه الطلاب لقب «رأس اللحمة» ثم رأوا أن هذا الاسم قليل عليه فلقبوه باسم «موتور اللحمة».

ولأحدثكم عن إحدى تصرفات (رأس اللحمة)

كان هناك راكبان لايعرفان بعضهما من قبل ويجلسان في مقصورة القطار، أحدهم لديه إحساس بالضحك، والثاني (رأس اللحمة).

ولكي يمضي الإنسان الذي لديه إحساس بالضحك، رحلة طيبة، ويبني علاقة ودية مع رفيق المقصورة، قام بسرد هذه الحكاية الفكاهية.

كان بين أصحاب الحمير في جزيرة الأميرات رجلاً مغفلاً، ولا أحد يعرف من الأكبر سناً هو أم الحمار؟.. وكان كل من يصل بالباخرة إلى الجزيرة ويود الذهاب إلى بيته لا يرغب الركوب على حمار هذا الرجل العجوز. لأن الحمار أصبح مسناً عاجزاً. أراد أصحاب الحمير السخرية من هذا الرجل المغفل الذي لا يكسب نقوداً.. فقالوا له خذ قليلاً من النفط وأمسح به مؤخرة الحمار، فيتألم فيبدأ بالجري.. نفذ الرجل العجوز ما نصحه به رفاقه، انتظر وصول الباخرة. فجاءه زبون ركب على حماره ولكن الحمار لم يتحرك، قام العجوز بضرب الحمار، وجرّه، لكنه بقي في مكانه لايتحرك.. عندها صب من الزجاجة التي كان يحملها في جيبه مقدار أصبع من النفط على مؤخرة الحمار، فبدأ الحمار يركض بأربعته.. لدرجة أن صاحب الحمار لم يعد يتمكن من اللحاق بحماره، مهما أسرع أو ركض..فقام صاحب الحمار بصب ما مقداره اصبعاً من النفط على مؤخرته هو ليتمكن من اللحاق بالحمار!.. بدا يركض أيضاً. والحمار يركض. إلى أن وصلوا إلى بيت الزبون، وبعد أن نزل الزبون من على ظهر الحمار، أمسك صاحب الحمار برباط حماره وأعطاه للزبون وقال له:

ـ أنا لم أصل إلى سرعتي القصوى بعد. لذا أرجو أن تمسك بهذا الحمار من رباطه ريثما أقوم بدورة أخرى ثم أعود.

بعد أن سمع هذه الحكاية المرحة لم يظهر على وجهه أي آثار حتى لابتسامة ولكنه سأل:

ـ إيه وبعدين؟..

عندها خرج الراكب الذي كان يروي هذه النكتة من المقصورة وأمضى باقي الرحلة وهو واقف في ممر القطار.

هناك نكتة تروى عن أحد الشعراء الإيرانيين الكبار أمثال سعدي حافظ، وهي أن شاه إيران طلب من الشاعر الكبير أن يمدحه بقصيدة، لكن الشاعر لم يستجب لطلب الشاه، فقام الشاه بالضغط على الشاعر، لكن الأخير أصرّ على عدم نظم قصيدة المديح. عندها أقدم الشاه على حبس الشاعر مع أحد رعاة الماعز في حجرة واحدة.. مرت الأيام وبدأ الشاعر بكتابة الشعر تمضية للوقت وكان يقرأ هذا الشعر بصوت عال، لم يستطع راعي الماعز حبس دموعه طوال مدة سماعه الشعر. ظن الشاعر أن هذا الراعي يبكي لأنه تأثر بالشعر فسأله:

ـ لماذا تبكي أيها الراعي؟ هل أحببت شعري إلى هذه الدرجة فأجابه الراعي:

ـ أنا لاأفهم بالشعر أبداً..

ـ إذن لماذا تبكي؟

أجابه الراعي:

ـ لقد كانت ذقنك تتحرك إلى الأعلى وإلى الأسفل عندما تقول الشعر، ولقد ذكرني منظرك بمنظر التيس الكبير في القطيع الذي كنت أرعاه فبكيت!..

عندها ضرب الشاعر بقبضته على باب الحجرة وصرخ غاضباً:

ـ دعوني أخرج من هنا وأنا على استعداد لأن أكتب قصيدة المديح التي طلبها مني الشاه.

نشر في مجلة الفنون العدد رقم ٢٦٧ وتاريخ ٦ آذار مقالاً بعنوان «قنبلة النوترون ستنقذ المدنية» وتمنيت أن تجد صدى طيباً لدى القرّاء.

لاحظت في الآونة الأخيرة أن هناك من يريد أن يسجل نقاطاً أكثر علي، وأن يسعى إلى تحطيمي، وجرحي والحط من قدري!.. في الماضي عندما كان اليسار يحتاج إلى معنويات كان يحصل عليها من اليمين، أما الآن فقد اصبح اليسار رخيصاً جداً، وظن البعض ممن ليس لديهم نضج يساري أن بإمكانهم الحصول على التأييد بأرخص الأثمان.. وقد تبين أن من يقوم بأداء المهمة في هذه الأيام هم الذين يظنون أنفسهم يساريين!..

كانوا يتعمدون دوماً إيجاد خطأ ما في مقالاتي، ووجدوها فرصة سانحة في مقال (قنبلة النوترون ستنقذ المدنية).

حدثني صديقي «وداد كون بول» أن أحد الأصدقاء حضر إليه وقال له: إن عزيز نسين يمتدح قنبلة النوترون، وهو بذلك يعادي الإنسانية!.. لذا يجب الرد عليه!.. كان السيد وداد قد قرأ مقالي من قبل فرد عليهم قائلاً: «هل انتم مجانين؟..». «أنتم تعرفون عزيز نسين منذ سنين طويلة، فماذا جرى لكم حتى تغيرتم؟.. إن ما كتبه عزيز نيسين هو عبارة عن ضحك سوداوي بامتياز وهذا واضح منذ البداية، من الجملة الأولى». فقالوا له: إن الكتابة المضحكة لايمكن أن تكون بهذا الشكل؟ ثم إذا كانت الكتابة مضحكة فلماذا لم يضع إشارات

تعجب (!) في بعض الأماكن ليسهل على القراء فهم المضمون؟.. فيجيبهم وداد:

«إن عدم وضع هذه الإشارة دليل على أنها كتابة مضحكة».

ذات يوم هتف إليّ السيد محمود رئيس جمعية السلام بالتلفون وقال لي:

ـ إن البعض يأتي إليه ويقول له: لقد كتب عزيز نيسين مقالاً بعنوان «قنبلة النوترون ستنقذ المدنية». إنه عدو السلام ويجب طرده من جمعية السلام.

فيجيبهم السيد محمود رئيس الجمعية بعد أن قرأ مقالتي: «هذه مقالة ضاحكة، إن عزيز نصب لكم فخاً!..».

علماً بأنني لم أنصب أي فخ طوال عمري لأي أحد حتى لو كان عدواً.

في هذه الأثناء يبرز لنا السيد (أوكتاي أقبال) أيضاً. وقال: وصلته بعض الرسائل التي يصف مرسلوها بأن عزيز نيسين عدواً للإنسانية، وعدواً السلام.. فيتحمس السيد أوكتاي ويدرج مقالاً ضدي وهذه بعض المقاطع من مقالته:

قارئان كتب كل منهم رسالة، بعد أن قصوا تلك الصفحة من المجلة وأرسلوها لي.. وكنت قرأت سابقاً ما أرسلوه لي، لأن المجلة كانت على طاولتي منذ عدة أيام.. ظننت في البداية أن المقال يندرج ضمن باب المزاح والضحك، واستغربت وجود مثل هذا المقال الذي يضحك بسوداوية في مجلة «الفنون» ولم اكن أتصور أبداً أن كاتباً قوياً ومتمكناً من نفسه يمكن أن ينزلق ويقع في هذا المأزق فيحول هذا

الشيء المضحك إلى شيء جدي للغاية، كان الموضوع قنبلة النوترون. هذه القنبلة التي تقوم بعمل نظيف!.. فهي تحافظ على المنشآت والأشياء، والتقنية التي جاءت بها المدنية، أما الأحياء فتقضي على جذورهم كلياً وتمحوهم من الوجود. إنها مدنية راقية، ومعجزة علمية يفتخر بها صديقنا عزيز نسين وهو يرى أن موت أكثر من ثلاثين مليون إنسان في الحرب العالمية الثانية أمر جيد، وإلا فإن هؤلاء الثلاثين مليون إنسان، كانوا سيتجاوزون المائة مليون، وسوف يزداد عدد سكان العالم بهذا المقدار أيضاً.. ويقول عزيز نسين في مقاله «قنبلة النوترون ستنقذ المدنية»! فأي مدنية هي تلك التي ستنقذها هذه القنبلة؟ وهل الأشياء التي ستنقذها هي «المدنية»؟. أليس من الأنسب أن يعطى لها اسماً آخر.. إنها تقضي على الإنسان، وتبقي على الأشياء الأخرى، والسيارات، ولا أدري على ماذا تبقي أيضاً، لعلها تبقي على المفاهيم، والفكر، والتفكير، والفن!..

ما أزعجني هو وقوف عزيز نسين بجانب الأشياء، وعدم وقوفه بجانب الإنسان ثم كيف يقوم كاتب قوي بالدفاع عن مدنية تخلو من الإنسان؟.. ولكن أكثر ما أدهشني هو قوله للناس الذين سيموتون بقنبلة النوترون «لن نكون بأي حال نحن أصحاب المدنية لأننا لن نصبح أناس متمدنين». أما باقي الناس فسوق يموتون ويرحلون.. وسوف نستمر نحن «الناس المتمدنون» في العيش ضمن تقنية عالمنا المتمدن الذي لن يدمر لكن يفنى!.. هل هذا ما تريدونه؟..

حسناً.. ولكن هل ستعتبرنا القوى المتمدنة التي سوف تستعمل قنبلة النوترون أننا أناس «متمدنون»؟.. لا أظن ذلك!..

هذا ما كتبه أوكتاي أقبال.

إنني أقدر الصداقة عالياً، لأنني لا أكسبها بسهولة، لذلك لا أريد التضحية بها، لذا فإنني أقدر أوكتاي أقبال لأنه قال: «صديقي عزيز نسين، وأشكره جداً، وكان يترتب عليه لو كان صديقاً مخلصاً أن يتصل بي هاتفياً ويسألني ما يريد سؤاله قبل أن يبادر إلى كتابة مقالته، فهذا أفضل!.. وهذا ما كنت أفعله أنا في السابق عندما كانت لا تعجبني إحدى مقالاته، أو عندما أكون ضد بعضها، حتى أنني قلت له ذات مرة في حديث هاتفي عن خطا مهم وقع فيه فأجابني: «لقد خدعوني مرة أخرى» ولكنني أرى أنه لا زال مخدوعاً حتى الآن.. لقد كتب له قارئاً!..».

ورغم أنه لم يتصل بي هاتفياً، لكنني بادرت واتصلت به لأن ما كتبه أوكتاي كان يتردد على كل لسان.. وحاولت أن أشرح له بكل صدق ما قصدته في مقالي موضوع البحث، ولكن أقبال أجابني:

ـ لقد قرأت جميع ما كتبته أنت، وإذا كنت أنا لا أفهم الكتابة المضحكة، فمن سيفهمها؟.. ولمن تكتب أنت؟.. لقد انتقد تلك المقالة وهو يحدثني بالهاتف انتقادا لاذعاً. حاولت أخذ الموضوع على أنه مزاح. علماً أن من عادتي الغضب، ولكن حالي كان أشبه بحال الرجل الذي سأل في نهاية النكتة التي سمعها «إيه وبعدين» لذلك لن أرد على كتابة أوكتاي إقبال مع أن في ذهني وعلى لساني كثيراً من السخرية.

ذهبت إلى القنصلية العامة للإتحاد السوفياتي بعد مقال أوكتاي

أقبال بفترة لأحصل على تأشيرة فسألني القنصل وكان عائداً لتوه من موسكو:

ـ عزيز بك: لقد علمت أنك كتبت مقالاً عن قنبلة النوترون وامتدحتها، أنا لم أصدق ذلك. فما هذه المقالة؟..

حتى القنصلية الروسية لم تصدق أنني يمكن ان اكتب مثل هذه الكتابة فسألته:

ـ من أخبركم بذلك؟..

ـ رؤساء النقابات!..

فقلت للقنصل ما يلي:

ـ إنهم يشكونني لكم. لأنهم يعتبرونكم أسيادهم.. أما أنا فليس لدي أسياد، لأن من يعتبر اليوم أن السوفيات هم أسياده وأقرباؤه المعنويون، كان يعتبر بالأمس أن الأميركان هم أسياده أيضاً ويمكن أن يكون الصينيون أسياد الغد. ويمكن أن يحتمي بروابط أقربائه في انكلترا وألمانيا، أما أنا فليس لي أسياد لكن لدي أصدقاء.. والاتحاد السوفياتي قام بثورة عمالية، وهو بلد صديق أحترم شعبه..

والآن وبسبب مقالتي موضوع البحث والتي اعتبروني بسببها عدو الإنسانية واعتبروني مؤيداً لقنبلة النوترون. لذلك فإنني أوجه هذا الرد إلى كل من انتقدني..

بسب ضغط وكثافة العمل، لم أعد أذكر كيف قمت بكتابة تلك المقالة التي نشرت في مجلة فنون.. وعندما ذهبت إلى موسكو في بداية شهر نيسان كانت المقالة التي كتبتها عن قنبلة النوترون على لسان كل من قابلته وكان الجميع يمتدح المقالة، تساءلت في نفسي

كيف عرفوا بهذه المقالة؟.. لابد انهم ترجموها إلى الروسية بعد أن اطلعوا عليها في مجلة الفنون!.. وبعد يومين من وصولي إلى موسكو نشر مقال في أحد الجرائد السوفياتية طالبوا فيه بتعويضي عن حق التأليف، سألت الجريدة عن أي مقالاتي تطالبون بحق التأليف. فقالوا إنهم يطالبون بالتعويض عن مقالي بعنوان: «قنبلة النوترون ستنقذ المدينة» عندها تذكرت كل شيء!..

وفي أنقرة استدعيت إلى ندوة اقامتها جمعية محبي الفنون. في ذلك اليوم جاءني مندوب وكالة «تاس» وسألني إن كنت سأكتب شيئاً عن قنبلة النوترون فقلت له باستطاعتك استلام المقال في الغد.. وفعلاً سلمته المقال في اليوم الثاني، لم تكن معي آلتي الكاتبة فكتبت نسخة واحدة بخط يدي ولم أصورها ولم أر من المناسب نشر هذه المقالة باللغة الروسية فقط. دون نشرها في تركيا. علماً بأنني أنشر في تركيا جميع مقالاتي التي تنشر في الخارج. لذلك رجوت مندوب وكالة تاس أن يعيد لي المقالة في اليوم التالي بعد أن يترجمها إلى اللغة الروسية...

وفي اليوم التالي سلمني مندوب وكالة تاس مقالتي فنشرتها في مجلة الفنون بعد أن عدت إلى استانبول.

تعرضت لانتقادات كثيرة وحتى للهجوم أحياناً بسبب هذه المقالة. وقد نسيت أنني كتبت هذا المقال من أجل وكالة تاس، ولم أتذكر ذلك إلا بعد أن نشرت إحدى الصحف الروسية ذلك المقال، ودفعوا لي مبلغاً قدره ٤٥ روبل و٢٥ كابيك حق التأليف بعد خصم الضريبة.

وكما علمت، كان الاتحاد السوفياتي أول المدافعين عن الحملة التي تعرضت لها بسبب قنبلة النوترون، تصوروا أن المقالة نشرت في الاتحاد السوفياتي وقرأها مئات الآلاف من القراء واحتفلوا بسبب هذا المقال وقالوا لي "هناك الكثير من الكتاب كتبوا لجريدتنا عن موضوع قنبلة النوترون، ولكن لم تكن مقالاتهم مؤثرة مثل مقالتك. ودفعوا لي (١٥٠٠ ليرة تركية) حق التأليف لكن ما جرى بعد ذلك من قبل بعض اليساريين والشيوعيين الأقوياء، والثوريين الانقلابيين الذين نحوا باللائمة على كاتب أمضى اكثر من أربعين عاماً من عمره مدافعاً عن الشيوعية وقالوا عنه أنه عدو السلام والإنسانية وعدو المدنية..

أعتقد أن هناك شيء يمكن أن يكون مفيداً لهم.. لقد وصلت إلى العمر الذي يمكنني من تقديم بعض النصائح لجيل الشباب من الكتاب والشعراء. لذا فإنني سأقدم إلى كتابنا الشباب الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من مقالي «قنبلة النوترون ستنقذ المدنية».

* لاتحاولوا أن تكونوا متملقين لأحد!..

* لا تسمحوا لأحد أن يكون سيد قلمكم!..

* اكتبوا بأمانة كل ما يقتنع به عقلكم وضميركم!..

* سامحوا كل من يشير إلى أخطائكم أو إخفاقاتكم وقولوا له (سامحني على خطئي)

* إذا كنتم واثقون مما تكتبون فلا تخشوا الذين يتهجمون عليكم، لأنكم ستجدون مؤيدين يقفون إلى جانبكم أكثر عدداً منهم.

هؤلاء الذين يرون أنني من مؤيدي قنبلة النوترون. هل كانوا يتصورون أن مقالي هذا سوف ينشر في الاتحاد السوفياتي، وإذا كانوا

يتصورون، فهل كانوا سيقفون ضد هذا المقال؟..

الزمن هو أكبر المؤيدين للأشياء، لذلك فالحياة جميلة.

مجلة الفنون ٢٩ مايس ١٩٧٨

هل قنبلة النوترون معياراً..

نُشر مقال عزيز نسين بعنوان «قنبلة النوترون سوف تنقذ المدنية» في مجلة الفنون في آذار ١٩٧٨ العدد ٢٧٨. لقد حاول عزيز نسين عن طريق الضحك السوداوي أن يوجه النقد والسخرية لنظام التفكير الذي أوجد هذه القنبلة. فأساس هذا النظام يرتكز على مفهوم أن الإنتاج ليس من حق صاحب الجهد الذي أنتجه، بل إن قيمة الإنتاج موجودة في التفكير الخاطئ الذي أوجد هذا الإنتاج، كونه ضد الإنسانية. هذه الفكرة تصنف في المجال الاقتصادي في خانة استغلال الجهد. ومثل هذا التصنيف وما ينجم عنه هو ضد الإنسان. لذا فإننا نعتقد بأن عزيز نسين قد فكر بهذه الطريقة وأراد انتقاد الوضع الذي لن يتسع لكل الإنسانية، واختار طريق الضحك السوداوي لأن الضحك أكثر الطرق فائدة في النقد هي الضحك.

بعد ذلك تناول السيد أوكتاي أقبال موضوع عزيز نيسين وكتب مقالاً في جريدة الجمهورية بتاريخ ١٦ آذار ١٩٧٨ بعنوان (مدنية بدون إنسان) وبعد أن قام أوكتاي أقبال بعمل مداخلة تتعلق بقيمة الإنسان قال ما يلي:

ظننت في البداية أن المقال يندرج ضمن باب المزاح والضحك، واستغربت وجود مثل هذا المقال الذي يضحك بسوداوية في مجلة «الفنون» ولم أكن أتصور أبداً أن كاتباً قوياً ومتمكناً من نفسه يمكن أن

ينزلق ويقع في هذا المأزق فيحول هذا الشيء المضحك إلى شيء جدي للغاية.

ثم يتحدث أوكتاي في مقاله عن مفهوم المدنية، ويقول في نهايته ما يلي:

«إن ما أزعجني هو وقوف عزيز نسين بجانب الأشياء، وعدم وقوفه بجانب الإنسان».

نحن نعرف كم وقف عزيز بجانب الإنسان في كل أعماله. كما نعرف كفاحه الطويل في هذا المجال. كما أنه حاز على جوائز عديدة، وأصبح عضواً في لجان التحكيم عدة مرات. لذلك فإن تقييم أوكتاي أقبال قد أدهشنا، وقد يكون ارتكب خطأ لخطر التقييم، أو ربما كان هناك ضحكة سوداوية في هذا التقييم!..

إن قنبلة النوترون كشفت الأفكار الحقيقية لكتابنا، ولأنها عرّت هذه الأفكار، لذا فإن ما نستطيع القول أنها كانت المحك للمبادئ. لذلك فإنني أنصح كتّابنا توخي الدقة عندما يريدون الكتابة عن موضوع قنبلة النوترون.مجلة الفلسفة: تموز ـ آب ـ أيلول ١٩٧٨.

ر . ي. جان برك

* * *

الفهرس

١ ـ المجنون بمائة ليرة ٥

٢ ـ نجلاء المسكينة ١٩

٣ ـ المعلمة ٣٥

٤ ـ المتقاعدون.. أيديهم ثقيلة ٤٧

٥ ـ عبدٌ أسير ٥٧

٦ ـ نقاش طبيعي ٧٣

٧ ـ معطف النائب ٨٣

٨ ـ صلابة الرجل ٩٩

٩ ـ عمل الخير ثواب ١١١

١٠ ـ يا عمي ١٢٣

١١ ـ الإنسان مشاكس بطبيعته ١٢٩

١٢ ـ الحلم المرعب ١٣٩

١٣ ـ قنبلة النوترون ستنقذ المدنية ١٥٣

KMH

المجنون بمائة ليرة

تعقّب رجال الشرطة المجانين الخمسة الهاربين من مشفى الأمراض العقلية مقابل إكرامية مائة ليرة عن كل مجنون.

أُلقي القبض على العشرات المشتبه بهم، ولدى معاينتهم في المشفى لم يجدوا بينهم واحداً من المجانين الهاربين، لكن الأطباء تحفظوا على الجميع.

هرج ومرج وانتقادات لاذعة أطلقها بعض الكتّاب والسياسيين على مقال كتبه عزيز نيسين بعنوان «قنبلة النيترون تنقذ المدنية».

ردّ نيسين على منتقديه برسالة وجّهها إلى جيل من الشباب قال فيها:

- لا تحاولوا التملّق والتزلف لأحد!..
- لا تسمحوا لأحد أن يكون سيّد قلمكم!..
- اكتبوا بأمانة كل ما يقتنع به عقلكم ويرضي ضميركم!..
- سامحوا كل من يشير لأخطائكم!..

إذا وثقتم بما تكتبون، فلا تخشوا هجوم الغوغاء عليكم، لأنكم ستجدون من يقف إلى جانبكم..

أجمل القصص يجمعها هذا الكتاب..

الناشر

السعر: ١٥٠ ل.س